
الكتاب الماسي
الست علية
بقلم عباس خضر

الكتاب
الماسي

الست عليه

بقلم: عباس خضر

مُقدَمَة

كتبت هذه المجموعة من القصص فى الفترة التى تلت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ما عدا قصة ((بنت عمى)) التى كتبت من قبل ونشرت فى مجلة ((الرسالة)) ويبدو أثر الثورة واضحا فى بعضها كقصة ((مات ايدن)) وقصة « مذكرات كرش » ولعل ((مشروع الغاء الكروش)) الذى دعت اليه هذه القصة هو الذى تحقق سنة ١٩٦١ باصدار القوانين الاشتراكية الثورية المعروفة .

وأمثالى الذين عانوا ما قبل الثورة ، ثم عاشوا بعدها يشعرون بنعمة كبيرة فى التعبير عن أشياء لم يكونوا يستطيعون التعبير عنها وحتى اذا رمزوا اليها فعلوا ذلك فى ياس ومرارة . اما الآن فاننا نكتب بامل فى مستقبل احسن من الحاضر .

وكل قصة من هذه القصص تدور حول بطل له ازمة يصارع فيها عوائق التقدم أو المثل التى يعتنقها وقد يكون البطل ((قيمة معنوية)) تصارع الشخصية غير المستقيمة أو الرواسب المعوقة .

واحب أن أشير الى قصتين فى المجموعة لكل منهما صفة خاصة وهما ((فرس دياب)) و ((محنة الفيلسوف)) الأولى مستوحاة من الادب الشعبى وتصور تعلق الفارس بفرسه الى درجة ترفعها فوق ما يباع ويشترى وتعتبر عن صراع فى نفس الفارس العربى بين هذا التعلق وبين الاغراض القومية والروابط التى تجمعه بقومه والتى تتغلب فى النهاية . أما القصة الاخرى فتأخذ سمات من القصص الشعبية فى بدئها وفى بعض الدوار ولكنها تصور الواقع الذى تتصارع فيه أيضا النوازع الفردية مع مصلحة الجماعة التى تتغلب فى النهاية كذلك .

وقد جرت عادة النقاد فى تناولهم للاعمال الادبية ــ اذا تحدثوا عن مثل تلك الاغــراض وأرادوا الانتقال منهــا ــ ان يقولوا مثلا أما من الناحية الفنية فكذا أو كذا .. الخ وربما قلت أنا مثلهم فى بعض ما كتبت من النقد . ولكنى الآن أدين بأن الموضوع أو الفكرة أو الهدف أو المغزى ما هو الا عنصر فنى من عناصر القصة الفنية ان فقدته فكما تفقد أى عنصر آخر ولا يعد دخيلا عليها الا اذا تكلفه الكاتب وقصــد اليه قصدا دون أن يكون نابعا من نفسه ومن صميم انفعاله وتاثره بنمو القصة وشخصياتها .

وبعضهم يغالى فى الدعوة الى اخفاء ما يرمى اليه الكاتب بحيث يكون غامضا لا يهتدى اليه القارىء بسهولة ، وبعد ذلك مقياسا للجودة . قيل ذلك فى الغرب ونقل الينا ولكننا فى هذه البلاد الساطعة الشمس لا تميل اليه بطبعنا . ولعلهم قالوا بذلك كرد فعل أو كمناقضة متحمسة للخطاب المباشر وللشعارات الظاهرة . وهذا وذاك طرفان كطرفى الفضيلة الوسط .

على ان الكاتب ان أخفى ما يرمى اليه ــ لا يعدم ناقدا يسأله : ماذا تريد أن تقول ؟ واذا كان الناقد ــ وهو قارىء ممتاز ــ يقول ذلك فماذا يفعل القارىء العادى ازاء المرمى الغامض ؟ ولماذا يكتب الكاتب اذن ؟

ان الكتاب يحاســب على أنه أنطق ــ مثلا ــ احــدى الشخصيات بمالا يتفق مع رســمها أو أنه ــ مثلا كذلك ــ خرج عن جو القصة الطبيعى ليلقى الينــا بأفكار مفتعلة مقحمة .. وما الى ذلك مما يخل بالاندماج وبتمثيل الحيــاة الواقعة .

أما ان نقول له : لا ، هذا أدب منفعة ، هذا اصلاح ، هذه أخلاق ، ليس هذا بفن ، أما أن نقول له ذلك اطلاقا لمجرد انه يهدف أو يريد أن يقول شيئا من خلال صوره ومعالجته الفنية فهذا ما لا يرتضيه الفن نفسه ، اذ كيف نرضي عن حرية الفنان حين يجول فى لا شيء ونهب فى وجهه بالصياح اذا استعمل هذه الحرية فى التعبير عن المثل والقيم التى يدين بها ويعمل على بثها فى عمله ؟ .

ثم لماذا نجرد الفن عن المنفعة أو الاصلاح أو الاخلاق ؟ أليس الفن فى أسمى غاياته خادما للانسانية ؟ وما الانسانية اذا لم يكن فيها أخلاق ؟ وهل الاخلاق غير الخير العــام المرجو للانسان فى كل زمان ومكان ؟

وبعد فقد أردت بهذه القصص أن أقول شيئا مما يقال لخير الانسان ولا أدعى التوفيق والكمال ولكن حسبى أنى أردت وفعلت .

عباس خضر

كلمة

ليس أجمل فى الحيـــاة الأدبية ، من أن يعيش القصصي بتجربته ، قبل ان يخط ســـطرا واحدا فى الحديث عنها .

ذلك لأن القصة ـ فى آخر تعريف لهـا ـ لم تعد مجرد كلمات منمقة مختــارة ، تروى حادثة طريفة أو تسوق حوارا لطيفا أو تنتهى الى عبرة نافعة . ولكن القصة ـ أعنى القصة الناجحة ـ هى التى ترسم أمام قارئها ـ طوال قراءته لها ـ صورا تكاد تتجسم أمام عينيه ، حتى لكـــانه لايقرأ صحيفة أو كتابا ، بل لكأنه يرى احداث القصـــة وأبطالها وانفعالاتهـــا على مسرح أو على شاشة ، ويتمنى لو كان له دور فى هذه القصة ، أو لو انه كان بطلا من أبطالها ، أو لو أنه كان بطلا من الخـــارج ، يتمنى ان يقتحم ميـــدان احداث القصة .

وانك لتحس بهـــذه الحقيقة وانت تقرأ اكثر قصص هذه المجموعة .

خذ مثلا القصة الرئيسية...قصة ((الست عليه))

اننى لا أحدثك عن اللغة ، ولا عن الاسلوب ، ولا عن الهدف . فقـــد يختلف النقاد فى آرائهـــم حول هذه المسائل .

انا مثلا ، كنت أوثر ان يكون السياق ـ كما هو فى هذه القصص جميعا ـ بالعربية الفصحى ، وان يكون الحوار كذلك .

ولكن عباس خضر ، ومعه كثيرون من كتـــاب الاقصوصة والرواية ، ومعهم ايضا كثيرون من النقاد ،

يرون ان اللغة ينبغى لها أن تكون اللغة الواقعية لامثال اشخاص القصة فى الحياة .

ومع هذا الخلاف فى الرأى — وهو لا يفسد للود قضية ... كما يقول أمير الشعراء — أرى ان قصة كقصة ((الست عليه)) عمل ناجح جدا ، لانك لا تشك وأنت تقرأ حكاية الست عالية ، ان كاتبها قد عاشر تجربة الـزار ، ولم يكتبها بل رسمها قارئها ، فأصبح يرى بعينيه ((الشيخ عبيد)) وهو يحسس على بطن ((الست علية)) وهى مقشعرة البدن مغمضة عينيها ، فى سبيل أمل كبير فى الابقاء على هذا الجنين الذى تمر فوقه يد الشيخ عبيد .

ولهذه المقدرة التصويرية ، يتحتم علينا ان نضع مؤلف هذه المجموعة فى عداد الموهوبين من كتاب الاقصوصة المحدثين .

صالح جودت

الست عليه



الست علية فى منتهى السعادة وهى تنظـــــر الى وليدها بجانبها فى الفـــــراش وكانت قـــــد تلقته من يد القابلة وحملته كلها ، ان نظرة واحدة الى هذا الحبيب الصغير العزيز تساوى الدنيا كلها كما تحدث نفسها : ماذا تكون متاعب الحمل وآلام الوضع الى جانب هذه السعادة ؟

كانت الست عليه كذلك برغم ذكريات عكـــــرة اندفعت الى ذاكرتها فى هذه اللحظة السعيدة ، ذكرتها بها هذه الاصوات التى جلجلت فى الشقة والقابلة تطوف بالطفل فى أرجاء المنزل والجميع وخاصة الاولاد من حولها يرددون .

برجالاتـــك برجالاتـــك .

حلقة دهب فى ودانانك .

ذكرتها هذه الاصوات وهذا الطواف بأشياء قديمة فيهـــا جن احمر وعفاريت .

لقد استطاعت أن تتخلص منذلك الماضي وتنتزع نفسهاووعيها الحديث من خرافة « الأسياد » وتحكمهم فى حياة الانسان وما يحدث له ولكنها اليوم تجد نفسها مضطرة الى مجاراة أهلها وهم فرحون بطفلها العزيز ، ولا ترى بأسا فى أن يفرحوا كمـــا يطيب لهم وان يلهو الاولاد كما يريدون فليس فىشيء منهذا اى ضرر كالذى كان .

فقد حاولت أن تقنعوالدتها والآخرين بأن هذا الذى يصنعونه للطفل لا معنى له ولا حاجة اليه . قالت لوالدتها :

ــ مفيش داعى يا ماما للسبوع والكلام الفاضي ده .

ــ اسكتى يابنتى خلينا نفرح .

ــ الفرحة فىالقلب .

ــ وماله ؟ نفرح كمان قدام الناس ونفرح الحبايب .

ـ ولكن الخرافات دى لازمتها ايه ؟

ـ اسكتى .. ما تقوليش كده .

وسكتت الست عليه وتركتهم يفعلون ماشاءوا فى الليلة الماضية وضعوا ابريقا من الفخار فى صينية من النحاس وقد زينوه بالوان من الطلاء وجعلوا فى فوهته زهورا ثبتوا فيها شمعة كبيرة اضاءت طول الليل ، ووضعوا سبعة انواع من الجبوب فى الصينية جول الابريق تتلقى ما ينضح منمائه فتندى وتنبت قليلا . واليوم جاءت القابلة وغربلتالطفل فى الغربال ودقت بجواره الهاون وامرته أن يسمع كلام أبيه وامه ويطيعهما ، ثم حملته وطافت به أرجاء المنزل لتصالح وتوفق بينه وبين « أخواته » تحت الأرض ، فرمت لهم من الحبوب السبعة فى كل مكان وهى ترتل ما تحفظه ، حتى يرضوا عنه فلا يؤذوه اذا ما كبر وصار يلعب فى هذه الأماكن التى تنثر فيها الحب .

تركتهم الست علية يفعلون كل ذلك وان كانت فى صميمها غير راضية وقالت فى نفسها ؟ انها وهى متعلمة مستنيرة وزوجة رجل متعلم مستنير ـ وقعت فى خرافات اشنع من هذه سببت لها ازمة نفسية وعنيفة عانتها فترة طويلة فما بالك بوالدتها السيدة الكبيرة التى لم تتعلم ولم يلحقها الوعى الحديث ؟ تركتها هى والاخرين يفعلون ما يحلوا لهم ما دام الأمر سليم العاقبة وليس مثل الذى كان .

نسيت الست علية ازمتها الماضية لولا هذا « السبوع » وما فيه من تراتيل للعفاريت وارضاء « للاسياد » فقد ذكرها ذلك بالزار والشيخ عبيد وما جرى لها معه .

هذا الولد الذى وضعته منذ اسبوع اول ولد لها تراه وخامس طفل تحمل به ، حملت اول مرة ، ثم نزل الجنين سقطا بعد أن قضي فى بطنها بضعة اشهر ، فأسرعت الى الطبيب وتناولت الادوية .. ثم تكرر السقط فى الحمل الثانى وتكرر العلاج وتنوع الاطباء ، وكذلك حدث فى الحمل الثالث حتى يئست من العلاج والاطباء .

وتحدثت اليها بعض السيدات عن الشيخ عبيد وسحره وحفلات الزار التى يقيمها وحكين لها حكايات فيها أسماء نساء من المجتمع العالى يقصدن الشيخ «عبيد» ويحضرن زاره أو يدعونه الى قصورهن وفيلاتهن ، فيشفين على يديه من امراضهن ويحققن بوساطة سحره مطالبهن .

وكانت ـ قبل ـ تسمع عن الشيخ واعماله فلا تلقى اليها بالا

وتسخر منها احيانا وكان قد اقترحت عليها بعض النسوة منذ سنين أن تلجأ اليه ليعمل « عملا » يعيد الى اختها الصغيرة خطيبها « أحمد » الذى ذهب الى المانيا لاتمام دراسته فتعلق بفتاة هناك اسمها « ريتا » وقيل انه تزوجها .

وسخرت الست علية من ذلك الاقتراح وتندرت مع زوجها بالاغرار الذين ينخدعون بهذه الاشياء . وقال الزوج :

ــ سحر « ريتا » أقوى من سحر الشيخ عبيد .

ــ لقد كان يحب سميرة .

ــ انه طيش الشباب وتقلباته ولا تنسي مغريات الحيـــاة الجديدة التى وجد نفسه فيها فجأة ، ومع ذلك من يدرى ؟

ــ آه ! لو لم يكن عاش معنا هـــذه المدة الطويلة حتى تعلقت به البنت وصار أمر زواجهما معروفا للجميع فماذا يقول الناس ؟

وأحس الزوج بمســـئوليته فى هـــذا الامر ، فأحمد ابن اخته ، جاء من القرية ليلتحق بالجامعة وأقام معهم ، ورحبت به الست علية كأمل لأختها ، فقال محاولا أن يذهب اليأس والحزن عن زوجته :

ــ انتظرى ، من يدرى ؟

كانت الســـت علية تســـخر من حديث الســـحر والعفاريت وزار الشيخ عبيد ، فلما تكرر سقوط حملها ويئست من الاطباء وتتابعت عليها الهموم وأرهقت أعصابها بدأت تصغى الى تلك الاحاديث وتشعر بشعور الغريق الذى يتعلق بأى شيء يظن أنه ينجيه من الغرق وقالت فى نفسها لماذا لا اجرب ؟ ونقلت حديث نفسها الى زوجها فأنكر عليها هذا التفكير ولكنه أمام سوء حالتها رأى أن يتسامح ويجارى وقال فى نفســـــه هو ايضا : لعل الوهم يجدى .

ذهبت الست علية الى الشيخ عبيد برفقة بعض جاراتها ، ذهبت وهى تشعر بالخجل من ذهابها الى الزار وقد ابت أن تدعو حفل الزار الى منزلها ، ولكن الشيخ « عبيد » قال : انه لابد من الذهاب الى المنزل ، ذهابه هو على الاقل « ليرقى » حجرة النوم ويصالح الاسياد الذين يأتون الى الست علية وهى نائمة فيؤذونها ، وطلب ديكا روميا أسود خاليا من اية «اشارة» أى من اى لون آخر وثلاثة أزواج من الحمام الابيض الخالى من « اشارة » .

ووافقت الست علية واجابت طلبات الشيخ ما عدا واحدا وهو ان تلبس خلخالا أعده لها من السلك الحديدى السميك . ولكل مشكلة عنده حل ، وحل هذه المشكلة هو أن البس قوائم السرير هذا الخلخال . وذبح الديك والحمام فىحجرة النوم وهو يتلو عزائمه التى يناجى بها ويسترضي الاخوان تحت الأرض ولطخ بدم الطيور قوائم السرير واركان الحجرة ، وحمل تابعه الطيور المذبوحة ومشي وراءه منصرفين !

وكان لابد ــ على حسب البرنامج الذى وضعه الشيخ ــ ان تتردد الست علية على حفلات الزار بمنزله .

قالت علية لجارتها كريمة التى حضتها وشجعتها منذ البداية على الذهاب الى الشيخ عبيد :

ــ ازاى ياكريمة اروح الزار ؟

ــ وايه يعنى ، وفيها ايه ــ ؟ ياما حاتشوفى هناك اتومبيلات وستات هايلايف .

ــ ياكريمة دول ستات مش كويسين .. انا كنت بلاحظ حاجات كده .

ــ حاجات ايه يادلعدى ؟

ــ نظرات وحركات مايعه ، هو فعلا الشيخ عبيد ده جميل ، لكن عيب .

ــ وهو مالو . همه اللى بيعملو كده ، وعلى كل حال احنا مش زيهم .

ــ طيب ــ انما انا حاحضر بس ، لا يمكن أفقر .

ــ على كيفك . بس الحاجات اللى قال عليها لازم تتنفذ . الجوزين الفراخ الحمر والجوزين الحمام البيض و .

ــ ايوه ، ايوه ، كله جاهز .

ذهبت علية وصاحبتها كريمة واختها سميرة الى منزل الشيخ عبيد يوم الثلاثاء وهو اليوم الذى تقام فيه حفلة الزار العامة كل اسبوع عدا الحفلات الخاصة التى تقيمها الفرقة فى منازل الداعين والداعيات . ودخلن من باب كبير لمنزل عتيق وقفت خارجه بعض السيارات وقادهن

الخادم الى ممر مظلم يفضي الى حجرة الشيخ وابت علية أن تدخل وحدها فدخلت معها كريمة ، وذبح الشيخ عبيد الطيور الخالية من « الاشارة » ودهن بدمها أجزاء من جسم الست عليه ، ودهن جبهتها وكفيها وباطنى قدميها . كان بدنها يقشعر وتشعر كأنهـــا تدفن أشياء عزيزة عليهـــا : افكارها العصرية ، واحساساتها الراقية ، ماذا تقول لزوجها وصديقاتها كانت تتحدث معهم عن مثل هذه الاشياء وتشـــترك معهم فى الســـخرية والاستنكار ، فكيف تحدثهم بعد عن هذا الذى تشترك فيه ؟

وزاد اقشعرار بدنها وارتفعت حرارتها عندما كان لابد ــ كما فهمت من حركات الشيخ وكلمات كريمة ــ أن تكشف بطنها ليدهنه بدم الطيور المذبوحة .. أحست بأن كرامتها تذبح ترددت وهمت أن تمتنع ليجد الشيخ بديلا من دهن بطنها كما فعل بالنسبة للخلخال ، وهو حلال المشكلات ، ولكن الجنين الذى يحتويه بطنها فى شـــــهره الخامس لابد من ارضاء « الاسياد » عنه بدم القرابين ، الطيور التى لا « اشارة فيها » . ولكن أين عقلها ؟ خيل اليها أن العقل يريد أن يذبح ابنها ، اليسوا يقولون أن عقل الانسان قاصر لا يدرك كل شيء ؟ فهل تدع طفلهـــا الحبيب يذهب ضحية هذا العقل القاصر ؟ فلتكشف عن بطنها ولتغمض عينيها وليتبلد احساسها بيد شيخ الزار وهى تمر على بطنها .

ودخلوا الى حفلة الزار فى سرادق بفنـــــاء المنزل العتيق وجلس الشيخ « الشاب » متربعا على حشية صغيرة فى جلبابه الابيض النظيف المكوى وعلى راسه طاقية بيضاء انحسرت قليلا عن مفرق شعره الكثيف الاسود الناعم اللامع . وانطلق دخان المباخر يعقد ضـــــبابا ذا رائحة طيبة ووقف رجل اسود عملاق يدق طبلة فى يده ويهز جسمه فتهتز قرون حيوانات مختلفة معلقة فى حزامه وتابعته الاصوات بترتيلها المبهم : اصوات نساء ورجال مختلفى الازياء والالوان ، بعضهم يدق الطبل وبعضهم يوقع بالصاجات . تنظم حركاتهم ونغماتهم امرأة ثيابهـــا بيضاء فوقهـــا ملاءة بيضاء هى « كودية » الزار .

دقوا أول الأمر دقة «شمهورش» فسرى لها فى أجسام الحاضرات والحاضرين خدر لذيذ ، وكان بعضهم يتمايل وهو جالس . ثم دقوا دقة « الجن الاحمـــر » فنهض المتمايلون والمتمايلات واندمجوا فى الرقص « التفقير » .

وعنفت الحركات وتطوحت الرءوس ودارت الاجسام وارتمت نساء على الارض وشرعت الكودية والشيخ عبيد فى « تفويق » الغائبات عن

الوعى ، وكان الشيخ يأخذ الواحدة منهن بين يديه ويربت على خديها ثم يمرر يده برفق على جبهتها وهو يتلو فى أذنها عزائمه ليخـــرج العفريت بسلام ، وشعرت عجوز متصابية بأن الكودية هى التى تتولى « تفويقها » فصاحت فى صوت مبحوح ، يقولون انه صوت العفريت :

ــ الشيخ عبيد .

ــ فجاءها الشيخ عبيد وأخذها بين يديه وأراحت رأســـــها على صدره وهو يربت لها ويسر بحديثه الى العفريت من خلال أذنها .

وكانت الست عليه قد تمالكت نفسها ولم تطع اغراء « الدقة » وامسكت بصاحبتها كريمة وأختها سميرة الى جانبيها ، وجعلن يشغلن انفسهن بالهمس والضحك المكتوم والتغامز على من يرتمين على صــدر الشيخ عبيد ، ولم تكن كريمة وسميرة قادرتين مثل علية على تمالك نفسيهما ازاء اغراء دقة الجن الاحمر بالتمايل والاهتزاز مع حركتها العنيفة ، وهمت كريمة بالنهوض عندما بلغ بها الانسجام حده ، ولكن الست علية امسكت بها وشدت يدها الى تحت وهى تقول لها مداعبة :

ــ انت عاوزه عشان يفوقك الشيخ عبيد ؟

فضحكت كريمة فىخجل واستقرت الىجانب صاحبتها . أما سميرة فقد لاحظت اهتزازها وانسجامها امراة قريبة منها فقالت لها :

ــ قومى يا أختى ما تقاوميش ، خليه يخرج .

ونظرت المراة الى الست علية كأنها تستأذنها لسميرة وقالت :

ــ سيبيها ياحبيبتى خليها تفرج عن نفسها .

ورقت علية لأختها الصغيرة وتذكرت ما تقاســـيه سميرة من خيبة املها فى حب أحمد ، فنظرت لها نظرة متسامحة كأنها تأذن لها .

واندمجت سميرة فى الزار وكانت تتفوه بالفاظ مبهمة فى صـــوت مبحوح تبينت منها كريمة والست علية كلمة « ريتا » كأنها تشكو الفتاة الالمانية الى الجن الاحمر تؤلبه عليها .. فقالت كريمة كأنهـــا تعبر عن المها نيابة عن الست علية المتزنة الصموت :

ــ ياكبدى ياحبيبتى .. اخص عليه الخاين .

ولما غابت سميرة عن الوعى وارتمت على الأرض أسرعت الست علية تقول لصاحبتها :

– الحقى ياكريمة .

– أيوه قبل ما يروح لها الشيخ عبيد .

قالت ذلك بلهجة ذات معنى ، كأنها ترد على ماقالته لها .

لم تذهب الست علية الى الزار بعد ذلك فقد شعرت بالآلام التى تعهدها قبيل سقوط الجنين فاستسلمت لآلامها الجسمية والنفسية يائسة من كل شيء وشعرت بالخزى والندم على لجوئها الى الزار وعجبت من نفسها كيف انساقت فى هذا التيار وعزمت على أن تسلم امرها الى الله وتدع المقادير تجرى كما تريد .

ولحق الجنين الرابع باخوته الثلاثة واسلمها اليأس من العلاج الطبى والخرافى الى حالة من الطمأنينة والهدوء اذ خلت نفسها من اللهفة وثبطت عزيمتها ولهذا كان هدوء نفسها ممزوجا بشيء من المرارة ولكن هذه المرارة لم تلبث طويلا فقد تلاشت فيما وقع بعد .

ذلك أن أحمد قد عاد من المانيا بعد أن اتم دراسته ورجع الى حبه الأول المتبادل مع سميرة التى لم ينتزع حبه من قلبها وأبت ان تتزوج واحدا ممن تقدموا لخطبتها فى غيبته مما كان يقلق الست علية ويزيد همومها ، وكذب أحمد نبأ زواجه من ريتا . واكد حبه لسميرة بالاسراع فى الزواج بها وشغلت الست علية بهذا الزواج عن كل أحزانها ولم تشعر بالقلق والخوف من أن يسقط الجنين الخامس الذى جاء على قدوم أحمد ، فسمته « أحمد » .

وها هى ذى الست علية تتأمل أحمد الصغير فى مهده وهى فى منتهى السعادة عادوا به الهيا بعد أن طوفوه بأرجاء المنزل وأتموا « مراسيم السبوع » كما أرادت الجدة الفرحانه بطفل ابنتها ولم يبق الا زياط الاولاد وغناؤهم .

برجالاتك برجالاتك خلى شويه ياواد لاخواتك
كل الخفة معاك فى اللفه ياسلام سلم على شرباتك

وقالت الست علية فى نفسها وهى تسمع الغناء :

« اخواتك » وتذكرت آلامها وما حدث لها فى الماضي وأحست بخوف من المستقبل كأنها خطفت هذا الطفل من أشباح تترصد لها ، وعاودت مناجاة وليدها :

« حسبى أنت من الدنيا ، ياحبيبى !

مسألة
الوزارة



كان السيد اسماعيل قد فاض به الغيظ وكاد صبره ينفد ، لكثرة تردده على الوزارة كي يستعجل الاجراءات اللازمة لانهاء مسألة له هناك ، وقد تبين له ان اهم هذه الاجراءات هو ان يذهب الى الوزارة ويتوسل الى «تحريك الورق» بمختلف الوسائل من رجاء هذا الموظف أو ذلك ، ومخاطبته بلقب «بيه» ومعاودة خطابه بلطف اذا تشاغل عنه ، والتذرع بالصبر اذا احاله أحدهم الى آخر ثم زحلقه الآخر الى ثالث ... ويحتاج الى أقصي ما يستطيع من الصبر اذا تبين له أن الوزارة كروية الشكل عندما ينتهى به المطاف الى الموظف الاول !

وكلمة « تعال بكرة » تكررت حتى صار معناها فى ذهنه : تعال كل يوم !

والسيد اسماعيل موظف فى وزارة أخرى ، ويضطر الى ترك عمله فيغادر مكتبه بعد أن يوقع على الحضور فى الصباح ويذهب الى الوزارة الأخرى للسعى فى انهاء تلك المسألة ، مرة يستأذن رئيسه،ومرة يزوغ ، وقد يأتى اليه ــ وهو غائب ــ حاجة تتعلق بعمله فيقال له : تعال بكرة ، وقد يلحق به صاحب حاجة وهو يهم بالخروج فيتخلص منه بزحلقته الى زميل آخر ثم يصرفه بأية وسيلة .

وفى هذا اليوم اضطر السيد اسماعيل ان يأخذ « أجازة عارضة » لأنه كان محتاجا الى الوقت كله ، ذهب أولا الى المدرسة واستطاع بعد جهد واستعانة بقريبه المدرس أن يقنع الناظر بأنه اب واحد لولديه التلميذين بالمدرسة ، ولهذا لاينبغى ان يطالب برسوم مجلس الآباء للولدين بل يكفى أن يدفعها لواحد فقط . وكان احد الولدين قد قال للناظر عندما طالبه بدفع نصف رسوم مجلس الآباء ما دام اخوه قد دفعها كاملة : ان لنا أبا واحدا لا ابا ونصف الأب فاغتاظ الناظر من سخرية الولد واعتبرها منه « لماضة وقلة أدب ، وطرده من المدرسة .

وغادر السيد اسماعيل المدرسة بعد أن اقتنع الناظر واطمأن الى انه واحد صحيح فقط

وها هو ذا متجه الى الوزارة وهو حائر ، لايدرى أيصدق ما قاله له امس مدير الادارة من ان مسألته انتهت وانه ــ كما قال ــ « عارفها كويس .. وبكره ان شاء الله تستلم الشيك » . أم ان الامر لايزيد عن الوعود السابقة من مدير الادارة هذا ومن غيره ..

ذلك أنه دخل امس على مدير الادارة متجهما ، وقد نفد مافى جعبته من الكلام اللين ، واستعصت البشاشة التى يجتهد أن يضعها على وجهه لاستمالة من بأيديهم الامر .

ولمح مدير الادارة ماعلى وجهه من امارات الغضب الذى لم يجد صاحبه فائدة فى الملاينة وكان بجوار المدير سيدة صغيرة مصبوغة الشفتين مدهونة الوجه ، يحادثها بوجه باش ونظرات راضية جلست على كرسي جلدى عريض بحذاء المكتب الكبير الذى يشغل نصف الحجرة ، وكانت ترشف من زجاجة البرتقال الغازية وتنظر اليه فى تحبب كأنها ترشوه بنظراتها .

ولطف الجو الناعم ، الذى يسود الحجرة ، الحدة التى تضطرم فى نفس السيد اسماعيل ، وان كانت قد ثارت فى نفسه مشاعر رديئة الطعم يشعر بها دائما عندما يدخل حجرة رئيسه ويرى فيها مثل هذا الجو وما تحتوى عليه من وسائل الترف والراحة ، ويقارنها بالحجرة التى يعمل بها هو وزملاؤه السبعة والتى رصت بها مكاتبهم الصغيرة متلاصقة كأنها (تخت) التلاميذ فى الفصل ، ويقارن بين الهدوء الذى يتمتع به الرئيس فى حجرته الخاصة الفخمة على حين مايسود حجرتهم دائما ضجيج ومناقشات ساذجة فى مختلف الشئون وان كانت هذه المناقشات تدل على الفهم والادراك عندما تتناول شئون الوظائف من ترقيات وعلاوات وما يخصم من العلاوات عند الترقية وما الى ذلك ، ويقارن بين السعاة المتكتلين عند حجرة الرئيس يلبون اية اشارة منه وبين الساعى العجوز الذى يجلس دائما فى الطرقة التى بين حجرتهم وبين حجرات الموظفين الآخرين الكثيرين غير عابىء بضربات الأجراس التى تنبعث من حجرات الموظفين وقد كثرت عليه الهموم فلا يجد فى دفعها أجدى من تجاهلها والتغافل عنها .

وشعر مدير الادارة من تجهم الداخل عليه ــ السيد اسماعيل ــ بما يهدد هيبته كأمير ، أمير اقطاعية من الموظفين امام السيدة المصبوغة الشفتين المدهونة الوجه ، فاستعد للدفاع ولكن على طريقته وطريقة أمراء الاقطاع الموظفين ، استدار فى كرسيه اللولبى الدائر متحركا من المواجهة

الجانبية للسيدة ، ولقى بجزعه الى الوراء ونظـــر الى الواقف أمامه ، وقال له :

ــ نعم .

ــ المسألة الـــ .

ــ أيوه .. أيوه عارفها كويس .. انتهت خلاص . تيجى بكـــره تستلم الشيك .

ــ متشكر يابيه .

ــ العفو أى خدمة .

كان ذلك أمس ، واليوم . هل يتســـلم « الشيك » حقيقة ويقبض هذا المبلغ ؟ .

ان فرحته بانتهاء هذه المشاوير ومتاعبها لا تقل عن فرحته بالمبلغ ذاته ، حقا ان النقود ستنفع فى بعض الضروريات التى يتضاءل أمامها المرتب الشهرى ، ولكن التخلص من تســـويفات بعض الموظفين ولقائهم الفاتر الذى يبلغ حد الوقاحة احيانا والتخلص من اضطراره الى احترامهم وشكرهم على الاهمال والوعود الكاذبة والتخلص من احساسه المخزى بأنه يفعل مثلهم فى عمله كل ذلك لا يقل شأنا عن المبلغ وما يحـــــله من أزمات .

ها هو ذا السيد اسماعيل يدخل على مدير الادارة لكى يسأله عن الشيك الذى وعد أمس بأن يتسلمه اليوم .

ــ السلام عليكم .

ــ عليكم السلام .

رد مدير الادارة التحية بأقل منها ، اذ لفظها بصـــوت خفيض ولم ينطق حروفها كاملة ، وقالها ناظرا الى الواقف امامه شزرا كأنه لم يره من قبل وحملت النظرة المتجاهلة معنى التساؤل والتحدى ، نعم التحدى ، فقد كانت هذه النظرة كأنها تقول :

« الآن فرغت لك ولا يهمنى أن تغضب أو ترضي ، فليس عندى تلك السيدة الصغيرة التى كان يهمنى أن اظهر أمامها بمظهر ذوى النفوذ الذين لا يليق أن يتجرأ عليهم احد من الموظفين أو طلاب الحاجات ..

خدعتك ؟ نعم ، بل قل كذبت عليك ، فليكن ، فماذا تريد ؟

وتذرع السيد اسماعيل بصبر ايوب ، وخطر له ان ايوب كان حين ثقل عليه أن يستعار صبره ويستعمل على هذا النحو ... وقال :

ــ المسألة اللى سيادتك وعدت بها امبارح ..

ــ مسألة ايه ياسيد .

ــ مش قلت لى سيادتك تعال بكره خد الشيك ؟

ــ آه طيب المسألة ايه بالضبط ؟

ولا يزال عند ايوب صبر ، يستعيره السيد اسـماعيل لكى يشرح مسألته من جديد .

مذکرات کرش



١٥ أكتوبر ١٩٥٠

بدأت اليوم حياتى ، فقد احسست بفراغ فى بطن صاحبى: وكــأن شـــيئا يفسح لى مكانا ، وشعرت بدافع يدفعنى الى الزحف لاحتلال المقدمة أو لتكوين مقدمة لصـــاحبى لانه كان ينتفخ فيبرزنى : ويثنىجزعه الى الخلف كأنه يقوم بتمرين العظمة .

وبدأت أعرف أخبار صاحبى واشعر بما يشعر به ، عرفت انه منح منذ اسبوع لقب « بك » من الدرجة الاولى « حرف أ » لانه ينتمى الى حزب سياسي يتولى الحكـــم ، وهو من الذين يستز بهم الحزب ويعتمد عليهم ، لانه يملك اراضي زراعيةواسعة ويمد خزانته بما يطلب منه فى المناسبات بسخاء ، وقد تبرع قبيل منحه هذا اللقب بمبلغ كبير لمشروع تصفه الصحف الموالية للحزب بأنه « خيرى » ولاحظ صاحبى أن التبرع له يرضي شخصيات ذات نفوذ وسلطان .

وهأناذا استمد مشاعرى من صاحبى فاشعر بالسعادة عندما يخاطبه الناس بســعادة البك ، وهو ينتفخ ويبرزنى كأنه يقدمنى اليهم ، وفى الوقت نفسه يضع على فمه ابتسامة يطلب منها أن تدل على التواضع .

وبرغم ذلك يداخلنى شعور غامض بالقلق لا ادرى له سبب ، وقد احسست بالكآبة عندما وقف صاحبى ينظــــر الى قوامه فى المرآة وهو ينزع الحزام الذى كان يشد البنطلون الى البطن ويضع له حمالة تشده الى الكتفين ولم يعجبه المنظر ..

الأول من نوفمبر سنة ١٩٥٠ :

جلست اليوم جلسة مع كرش الدبساوى ، وقد نشأت صداقة بينى وبين هذا الكرش الظريف ، والاستاذ الدبساوى صاحبه شاعر من جماعة يترددون على صـــاحبى ، يقولون عنهم أدباء، فيحتفى بهــم ويكرمهم ، وصاحبى يفرح عندما يقولون عنه انه شاعر ..واسمعهم أحيانا يقولون : المعنى فى بطن الشاعر ، فاذا وصفوا صاحبى بأنه شاعر ، أو قال لهم

هو كلاما مما يسمونه شعرا ، عجبت وقلت فى نفسي : ما المعنى الذى فى .. اى فى بطن صاحبى

وكرش الدبساوى أكبر منى سنا ولكنه فى حجمى ، فأنا ابن عز ، ويومى بعشرة من أيام كرش الدبســاوى ، لان صاحبه لا يدفع اليه من طيات الطعام مثلما يدفع صاحبى الى ، وكان السرور يبدو عليه وهو يدنو منى عندما يجلس صاحبه بجانب صاحبى على المائدة . وقد تعارفنا وتصادقنا فى هذه الجلسات . جلسات الاكل التى كانت تتكرر كثيرا فى منزلنا .

وفى جلسة اليوم قلت لصديقى كرش الدبساوى :

ـ ازى الحال ؟ ..

فأجاب وهو يتلقى قطعا من لحم الديك الرومى : عال .

وهو كرش مرح وظريف وصريح ، ولهذا أردف يقول :

ـ ايوه كده الواحد زهق من الفول والطعمية والبصارة ..

وراح يتحدث عن هذه الاشــياء بسخرية . وكنت عرفت الفول والطعمية فى المرات القليلة التى كانت نفس صاحبى فيها تذهب الى شيء منها . ولكنى لست على راى صديقى كرش الدبساوى فيها قلت له :

ـ دى حاجات لذيذة ، وانا زهقان من الحاجات اللى انت مبسوط منها دى .. ياريتنى آجى مطرحك وانت تيجى مطرحى .

ـ اسكت .. اسكت .. ماتقولش على نفســك طيب دا صاحبى ماتجيلوش الاريحة بتاعة الشعر .. الاعلى الاكل اللى زى ده .. دا هنا بيرتجل الشعر « ارتجال » .

ـ وفى غير هنا ؟

ـ يبقى قرفان ومالوش نفس يقول حاجة. .ويحط همه على الاكل ، ويفتح نفسه بالبصل ، ويأكل على الاقل رغيفين تلاته مع ماتيسر من الفول والطعمية والطرشي وما اشبه ! اسكت .. دا له شعر فى ذم الحاجات دى يموت من الضحك ..

والواقع ان الدبساوى كان ظريفا مثل كرشه ، وكان المجلس كله يضج بالضحك من نكته وشعره الهزلى ..

وقد لاحظت ان صاحبى عندما يريد أن يعمـــل شعرا ، وذلك فى احيان قليلة يكتب فى ورقة يعطيها الدبساوى وهذا يأخذها ، ثم يحضرها فى وقت آخر ، فيتسلمها صاحبى شاكرا له .

١٥ من نوفمبر سنة ١٩٥٠ :

أقيمت اليوم حفلة تكريم لصاحبى بمناسبة منحه لقب « بك » وما اكثر حفلات التكريم التى ندعى اليها فى هذه الايام ، والعجيب ان اكثرها من غير مناسبة .. وقد دبرت هذه الحفلة بين صـــاحبى وبين أولئك الشعراء والأدباء .

وقد مدحوا صاحبى واشادوا بجهاده الوطنى وتضحياته فى سبيل البلاد ..... ولما كانت القصائد والخطب تناولت اوصافا كثيرة والصقتها بصاحبى وانا لاعرفها فيه ، فقد سألت نفسي عن جهاده وتضـــحياته الوطنية ، انه عضو فى مجلس النواب ، وقد نجح فى الانتخابات بوساطة حزبه وثروته وأسرته وزراع أرضه ، ولكنه لايتكلم فى مجلس النواب الا عند ما يعطى صوته بالموافقة او عدم الموافقة على حسب مايرى حزبه .

وهو يساعد أقرباءه ومن ينتمى اليه ، وخاصة من تكلمه عنه زوجته ، بالتعيين فى الوظائف والترقيات والنقل من الارياف الى القاهرة وما الى ذلك . ولكنه لايشترك فيما يحدثنى به معارفى من كروش زملاء صاحبى اعضاء البرلمان وغيرهم من ذوى النفوذ من انهم يرتشـــون ويعقـــدون صفقات مريبة وكل كرش من هؤلاء يسر الى بفضائح اصحاب الكروش الآخرين غير صاحبه .

وكانت حفلتنا فرصة رأيت فيها عددا من الزملاء كروش المدعوين ، وكنت أتطلع الى التعرف ببعضهم ، ولمحت كرشا كبيرا لرجل يظهر أنه من اصدقاء الدبساوى ، وانه هو الذى أشار بدعوته الى الحفلة ، وكان يخاطبه قائلا : « يازناتى بك ! »

ودار بينى وبين كرش الدبساوى حديث خاطف عن زناتى بك ، علمت منه انه منتج سينمائى ، وكان قبل ذلك يحشر نفسه بين الشعراء ، وكان يسخو على بعضهم بعزومة أو « سلفية » لاترد ، فيعمل له شعرا ينشره باسمه ، ولكنه يئس من الشعر ولجأ الى الاخراج الســـينمائى مستعينا ببعض الذين يعملون مساعدين فى الاخراج ولكنه كذلك يئس من الاخراج ، فصار منتجا .

وكان كرش الزناتى بك يتودد الى ، قال لى وهو يكاد يندلق : « مساء الخير » .

ولم يعجبنى صوته الذى يدل على طبقته ، فاجبت فى ترفع مع شيء من المجاملة « مساء الخير يافندم » .

فضحك ضحكة عالية بلهاء ولم يشجعه سكوتى وتحفظى على الاستمرار فى الكلام وكذلك رأيت صاحبى لايستريح الى صاحبه ، وسمعت ماقاله عنه فى نفسه بازدراء : « غنى حرب » .

وزاد ضيق صاحبى بزناتى بك عند ما رآه يحملق فى « الشاعرة سميرة » لما كانت تلقى قصيدتها فى الحفلة ، ولم يكف عن الحملقة فيها بعد ماجلست . وقد همس لى كرش الدبساوى ان قصيدة سميرة من اعداد صاحبه . وسميرة فتاة رشيقة جذابة يستلطفها صاحبى ، ويتظاهر بتشجيعها ويصفها بأنها ذات موهبة .

وفى نهاية الحفلة القى صاحبى ابياتا من الشعر من ورقة كان قد وضعها فى جيبه قبيل الحفلة بعد ان تناولها من الدبساوى على الطريقة المعهودة بينهما ، فصفق الحاضرون وهتفوا له ولزعيم حزبه .

٨ من اكتوبر سنة ١٩٥١ .

تذكرت زوجة صاحبى اليوم أن زوجها منح لقب « بك » فى مثل هذا اليوم من العام الماضي فذكرته بذلك ، واقترحت أن يحتفلوا بهذه الذكرى . ووافق هو ، على ان يكون ذلك داخليا وفى نطاق ضيق بحيث لايشعر أحد من الخارج حتى لا ينتقدهم الناس فيقولوا انهم فرحوا باللقب .

واعدت مائدة الشاى فى الفراندة الكبيرة المطلة على الحديقة وجعلت السيدة تروح وتجيء وترفع صوتها بالاوامر الموجهة الى الخدم وتحشر كلمة « سعادة البيه » فى اكثر ما تنطق به ، وتستحثهم فى اعداد الشاى لان سعادة البيه أوشك أن ينزل من غرفته . . .

وكنا ــ انا وصاحبى ــ لانزال فى غرفة النوم بالطبقة العليا ، ونحن نسمع كلمة « سعادة البيه » ترددها السيدة بنغمة تعبر عما تعبر عنه الزغرودة .

ووقف صاحبى امام المرآة قبل ان ينزل ، وتركزت نظرته على صورتى فى المرآة فتغيرت سحنته .. وكنت قد تضخمت جدا . وكان صاحبى

يشعر بمضايقتى له وانى اشوه جسمه واسبب له البلادة والشعور بالارهاق لأقل حركة ولايسر جهد . ولكن ماذنبى انا اذا كان هو الذى يعمل على نموى وتضخمى فيدفع الى بطبقات الشحم يتراكم بعضها فوق بعض ، من كثرة الاكل .. وهو لايقوم بنشاط جسمى أو عقلى يستنفد طاقات الطعام الذى يدفعه نهمه الى الاكثار منه . والعجيب انه مع هذا النهم يدعى امام الناس قلة الاكل ..

وقد وضع له الطبيب رجيما سار عليه مدة احسست فيها بالراحة ولكنه لم يلبث ان قطع الرجيم وعاد الى نهمه المعتاد . وهو يكرر ذلك فى فترات مختلفة تطول فيها مدة الرجيم أو تقصر ، ثم تنتهى وتعود الحالة الى ما كانت عليه ، واحيانا الى اسوأ ..

نزلنا الى مائدة الشاى حيث كانت الزوجة والاولاد وبعض الاقربين فى انتظارنا وكانوا مسرورين متهللين ، وتغلب صاحبى على ضيقه الذى طرأ عليه لمنظره فى المرآة ، وشاركهم فى السرور ، اما انا فقد شردت عنهم ،فلم ادر ماذا قالوا وماذا فعلوا .

وكان سبب شرودى شعور صاحبى نحوى ، فقد بدات ابادله الشعور نفسه على أن شعورى مختلف من حيث انه هو الجانى على ، فهو السبب فى وجودى وفيما صرت اليه من التضخم ، وهل قلت له أكثر من الاكل أو نم فى اثناء جلسة النواب ولا تشغل فكرك بما يعرض ويبحث ويتناقش فيه ؟ وهل قلت له الزم سيارتك دائما ولا تمشي على الارض ؟ هل قلت له اجعل نفسك مستهلكا فقط .. ؟

وتذكرت ما سمعته من أولئك الشعراء والادباء فى مجلس صاحبى عن شاعر قديم يدعى أبا العلاء المعرى ، وكان ساخطا على وجوده فى الحياة ، ناقما على أبيه لانه كان السبب وكأن ذلك الرجل كان يعبر عن مشاعرى ، وقد علق هذا بذاكرتى دون كثير من الكلام الذى يقولونه لانه ينطبق على حالتى من حيث ضيقى بالحياة ... والآن عرفت تفسير الشعور الغامض القلق الذى داخلنى من اول حياتى .

الاول من اغسطس سنة ١٩٥٣ :

مضت مدة طويلة منذ آخر مذكرة ، وقد عشت فترة من هذه المدة مع صاحبى أو — ان شئت — فى مقدمة صاحبى ، نقضي معظم الوقت فى استرخاء وكسل وبلادة مع شيء من الضيق والسخط من جانبى، اما صاحبى

فانه ــ ما عدا بعض الاحيان التى يتضايق فيها من منظرى ــ فى المرآة لم يكن فى الامكان عنده ابدع مما كان .

حتى هزتنا احداث يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وما تلاه ، اما انا فهــزنى الأمل وشغلتنى مراقبة الاحداث المتلاحقة وانا متفائل ، أما صاحبى فقد كنت أهتز معه وهو يروح ويجيء فى قلق لم اعتده منه ، كان يراوده الامل حين يرى بعض اصدقائه من قدماء الساسة فى الحكم ، ولكن عندما تمت تنحية هؤلاء كان يبحث عن منفذ آخر فيتطلع الى التقرب الى القــائمين بالرياء والنفاق . وقرأ فى الصحف شعرا للدبساوى يتمشي مع مقتضيات العهد الجديد . فاشتاق الى رؤية صديقه القديم الذى قلل من زيارته وود صاحبى ان يخرج عن كبريائه ويزور الدبساوى فى منزله كند يبادل نده الزيارة .

وقد نزلت بصاحبى كارثتان : الغاء لقبة مع الألقاب ، واخذ الاصلاح الزراعى خمسمائة فدان من أرضه . ولم يكن الغاء اللقب أقل وقعا على نفسه من تحديد الملكية الزراعية !

وهو يتضايق فى نفسه ممن يخاطبونه بغير لقب « بك » ويغتاظ من كلمة « سيادتك » التى حلت محل « سعادتك » كأنه يؤثر السعادة على السيادة .على أن كثيرين مازالوا يخاطبونه باللقب القديم برغم القانون .

انه يحس بأن اللقب هو مجده الذى حصل عليه بعد السعى وبذل المال والذى كان يأمل ان يصل بعده الى اللقب الآخر : باشا ... منتهى المجد ! . فتجريده منه يجعله فى اعداد الناس العاديين الذين لايجد شيئا يرفعه عنهم سوى اللقب !

واليوم حدث أمر تافه ولكنه بالغ الدلالة .. أمر كاتبه ان يكتب خطابا الى فتحى« باشا » أحد اعضاء حزبه المنحل ، فلما قرأ عليه الكاتب الخطاب ثار وزمجر على قلة ما يثور ويزمجر .. لأنه كتب اسم « الباشا » مقرونا بلقب أستاذ من غير باشا ..

قال الكاتب فى تبرير هذا :

ــ انهم يغرمون من ينطق بباشا او ببيه قرشا .

ــ أنا مستعد ان أدفع مائة جنيه وأقول فتحى باشا .

كان ذلك انفجارا عما يعتمل فى نفسه من تجريده هو من اللقب ..

الأول من سبتمبر سنة ١٩٥٣ :

زارنا الدبساوى وكرشه . وقد استقبله صاحبى مسرورا بقدومه . وكنت مشتاقا الى كرش الدبساوى ، وتبادلنا التحية وتحادثنا ، فنقل الى اخبارا هامة عن اصلاحات العهد الجديد ومشروعاته ، فدهشت لتناقض هذا مع مايتحدث به صاحبى وخلفاؤه وما يهمسون به من الاشاعات والتشنيعات .. والغريب ان صاحبى جعل يتحدث مع الدبساوى بروح اخرى مختلفة ، لانه يعلم أن الدبساوى يجارى العهد الجديد ، ويأمل أن ينقل عنه مايقوله حتى ينال حظوة لدى المسئولين .

ــ نفاق !

قلت هذا وانا اسمع ذلك الحديث .

.. فقال صديقى الكرش :

ــ أوه .. أنت شفت ايه! دا فيه من دا كتير ، البلد ــ ياأستاذ ــ مليانه نفاق .. وسرتنى كلمة « أستاذ » على خلاف صاحبى الذى يعتبرها اعتداء على لقبه المأسوف عليه .

واحسست انى جدير بلقب أستاذ ، لانى افكر فى المسائل والشئون المختلفة تفكيرا لو فعل مثله صاحبى لقضي علي ولم يبق لى وجود .. لانى نتيجة بلادته وكسله الجسمى والفكرى .

وفى غمرة النشوة بالاستاذية تذكرت أن أبا العلاء المعرى كان يعتبر نفسه محبوسا فى هذه الدنيا ولن يطلق سراحه الا الموت ، وانا كذلك .. وكم اشتاق الى الحرية فى عالم الفناء ... وسمت نفسي الى التضحية فى سبيل الناس بالقضاء على وعلى أمثالى الكروش كلها .. ولو أن أصحاب الكروش لايستحقون منا التضحية ، لانهم هم الجانون علينا بايجادنا فى هذا السجن .. هذه الحياة .... ولكن نرجع ونقول : ان الحياة من حقهم وعلينا ان نتركها لهم .

يظهر أن أبا العلاء المعرى كان كرشا فى صورة انسان .

وحدثنى كرش الدبساوى عن مشروعات الثورة التى تهدف الى رفع مستوى المعيشة بين افراد الشعب وتحقيق العدالة بين الجميع ، فقلت له وانا لاأزال فى نشوة الاستاذية التى تكرم بها على :

ــ اتريد الحق اننا ــ معشر الكروش ــ نتيجة من نتائج الاوضاع

الفاسدة فلو ان اصحابنا كانوا يعملون وينتجون ، ويأكلون على قدر حاجة اجسامهم فقط ويدعون الباقى للمحتاجين اليه ، لاسترحنا وارحنا .

ــ انت يظهر انك فيلسوف كبير . طيب فسر لى ياأستاذ كيف نستريح ونريح .

ــ اسمع ياسيدى .. الثورة تعمل على نشر العدالة بين افراد الشعب والكروش تنشأ عن طعام زائد يأكله اصحابها ويحتاج اليه غيرهم، فلماذا لايكون ضمن مشروعاتها مشروع لالغاء الكروش بالقضاء على اسبابها ولا سيما أنه مادامت هذه الاسباب موجودة فستوجد اجيال جديدة من الكروش .

ــ لم تفسر لى كيف نستريح ونريح .

ــ بالقضاء علينا يستريح الناس من أعبائنا ونستريح بالخلاص منهم .

دهش كرش الدبساوى ، وهم بالكلام ، ولكن صاحبه نهض مستأذنا فى الانصراف ، فانصرف معه دون أن يقول شيئا .

واستقر صاحبى فى مجلسه بعد ان ودع الدبساوى، فقلت فى نفسي: « ألا يستطيع الكرش منا أن يتم كلامه مع الآخر .. ؟ هل هذه حياة نستحق ان نعيشها ؟ ... أين الحرية يا .... ناس !

ثم سمعت صوتا يقول لصاحبى :

ياسعادة البيه .

صاحبى لايزال « بيه » .. برغم الغاء الالقاب .. وسأظل أنا موجودا وان نفذ مشروع الغاء الكروش . فما الفائدة ؟

الفائدة لمن بعدنا ... وما نحن الا آثار للماضي ستذهب بعد حين .

بوذا
الرحيم



نعيمة : ست طيبة ، ومع هذا كثيرا « ماتناكف البائعين »،
فهى لاتشترى شيئا وتستريح الا اذا عرفت انها اخذته
بأقل سعر ممكن .

وابنتها« منى » ورثت منها الطيبة ورقة القلب ولكنها لاتشعر
بأعباء المعيشة على النحو الذى تشكو منه امها ، ولهذا تتضايق وتتألم
من طريقة أمها فى الشراء من البائعين الذين تناديهم من الشرفة
أو النافذة ليصعدوا الى شقتها فى الدور الثالث ثم تساومهم
وتحاورهم حتى تشترى منهم أو لاتشترى غير عابئة بشتائمهم
التى تهبط معهم على السلم .

نادت منى بائع الموز كما أمرتها أمها ، وصعد الرجل العجوز
الرث الثياب أو الثوب الواحد المرقع الذى يشارك صاحبه فى
الشيخوخة الداعية الى الراحة دون أن تجد راحة . وجاهد
الرجل حتى استطاع أن يضع قفص الموز على بسطة السلم أمام
الشقة وهو يتنهد راجيا فى نفسه أن يكون هؤلاء الزبائن اناسا
طيبين فلا يدعوه ينزل دون أن يشتروا منه كما يفعل الكثيرون من
سكان الشقق العالية .

وأطلت منى من باب الشقة ، واجفلت عندما رأت خرق
الثوب البالى تنحسر عن ركبتى الرجل .. ولكنها عجبت كيف
استطاع ان يصعد السلم على هاتين الساقين الهزيلتين الجافتين
المتغضنتين المقوستين ، الا يخشي عليهما من الكسر ... ؟ ورأته
يرتعد من البرد ..... فتذكرت ماقالته لها أمها عندما طلبت
منها ان تنادى بائع الموز من الشارع :

« البسي الروب من البرد قبل ماتخرجى فى البلكونة » .

حقا انه روب كستور قديم عندها من سنتين رأت الست نعيمة أنه
يكفى هذا العام ولا داعى لشراء آخر جديد لأن حالة الاسرة المالية تستدعى
هذا التدبير .

ومنى كانت تريد روبا جديدا مثل الروب الصوف الذى رأته عند
نادية صاحبتها وزميلتها فى المدرسة الثانوية وابنة الياسمينى صاحب
مصنع الروائح ، ولكنها تساهلت فى طلبه لانها سرت بطقم الصالون

الجديد الذى اشتروه حديثا واستعانت الست نعيمة فى جمع ثمنه بالمبلغ الذى أخذته من « الجمعية » عند ما جاء عليها الدور الى جانب مادبرته من وجوه اخرى ، ولما فرش الطقم فى حجرة الاستقبال ظهرت علامات الفرح على وجه الست نعيمة وقالت :

(أيوه كده ... الواحد دلوقتى يقابل الناس بقلب .. ده الواحد يجوع ويبقى مستور أحسن) .

وكانت حريصة على أن تزورهم جارتهم زوجة المقاول التى قالت لها مرة :

(ودا طقم يليق بمقامكم ياست نعيمة !) .

والسيد عبد الفتاح زوج الست نعيمة يقول عند ما يأتى ذكر زوجة المقاول :

(الست دى تافهة جدا) ويحكى ماحدث منها لما ذهبت لزيارة جيران آخرين فلما فتح لها الخادم الباب نصف فتحة وقال لها انهم غير موجودين (زقت الباب بكل بجاحة ودخلت تتفرج على العفش .. كأن حضرتها مفتشة عموم الشقق ... !)

والسيد عبد الفتاح لايستريح الى اهتمام زوجته بهذه المظاهر لانه يرى أن هناك ضرورات أهم منها ، ولكنه مضطر لمجاراتها ، ويسره ان يرى اولاده مسرورين . ولو ان الأمور تجرى على مايريد هو فليس هناك داع الى حجرة الاستقبال التى لاتفتح الا نادرا والواقع انه ماكان يجارى زوجته وما كانت هى تستطيع ان تتبحبح لولا ان لها ايرادا من نصيب فى عمارة ورثتها عن أبيها تتعاون به مع زوجها على أعباء المعيشة ، وتعد تلك المظاهر فى مقدمة الأعباء ، اما منى وهى كبرى الاولاد فقد قالت لابيها السيد عبد الفتاح وهو يهون من شأن الحاجة الى الطقم الجديد :

(ازاى يابابا ... الناس يقولوا علينا ايه .. ؟ اهو دلوقتى لما تيجى نادية صاحبتى تنبسط !)

ومنى تقصد فى الحقيقة انها هى التى ستنبسط لما ترى زميلاتها فى المدرسة يزرنها ويرين أثاث منزلهم مشرفا .

وودت منى — وهى ترى الرجل العجــــوز يرتعد من البرد — أن يستغنى والدها عن جلبابه القديم لتعطيه بائع الموز العجوز ،ولكن السيد عبد الفتاح محتاج الى الجلباب القديم كى يغير به مع الجلباب الجديد ، وخاصة عند ما يغسل الآخر .

وسألت منى البائع عن ثمن اقة الموز ، فأجابها ، فاستدارت الى داخل الشقة ورفعت صوتها تقول لأمها المنهمكة فى بعض الاعمال المنزلية :

ــ بعشرة صاغ .

فجاء صوت امها من الداخل يقول :

ــ قولى له بسته .

ووقفت منى حائرة لاتستطيع ان تقول للبائع شيئا ، ولكن هذا كان قد سمع صوت الست نعيمة الملعلع وهى تقول :

(قولى له بستة)

فتحسس القفص وهم بالنهوض :

ــ شيلى على يابنتى .

قال ذلك وهو يشعر بابنه الصغير المرافق له يلتصق به فيمده بقوة على الكفاح ، ولكن منى استمهلته وهى تعيد على أمها :

ــ بعشرة ياماما .. دا موز كبير وكويس .

ــ يابت قولى له بستة :

ووقع نظر منى على نجفة انيقة تتوسط سقف الصالة التى يتخذونها بمثابة حجرة مائدة مؤقتا حتى يتم مشروع الست نعيمة بالانتقال الى شقة اخرى تحتوى على خمس حجرات بدلا من هذه الشقة التى هى اربع فقط فتخصص حجرة للمائدة وتستعمل الصالة (انتريه) وان كان السيد عبد الفتاح يرى أن هذا معناه اضافة حجرة جديدة ستغلق ولا تفتح الا قليلا دون فائدة غير المظاهر الجوفاء ، وهو يسكت عند ما تقول له زوجته :

(الاولاد كبروا ومنى بقت عروسة .. والدنيا مظاهر ..)

قالت منى فى نفسها عندما وقع نظرها على النجفة الغالية :

لو ان بائع الموز المسكين حصل على ثمن هذه النجفة لحدث انقلاب فى حياته ... وهى عندنا لاتزيد على انها منظر فخم امام الزوار .. وتغنى عنها لمبة بستة قروش .. ولكن نادية بنت الياسمينى .. فى حجرتها الخاصة بها نجفة أحسن منها ! وانا واخوتى ننام فى حجرة ليس بها

نجفة .. وهذا الرجل العجوز المسكين .. من يدرى كيف يبيت .. وفى اى نور .. او ظلام .

والتفتت الى بائع الموز وهو يقول كأن صبره قد نفد ..

(تاخدو بتمانية .. !)

وكانت الست نعيمة قد اخلت يدها مما كانت تعمله فى الداخل وخرجت الى بائع الموز كأنها ممثلة كبيرة تظهر على خشبة المسرح لتؤدى دورها فى مساومة البائع .. وخرجت جارتها من الشقة المجاورة تنتظر حتى تشترى بالسعر الذى تشترى به الست نعيمة دون أن تتعب نفسها فى المساومة مطمئنة الى أن البائع لم يغلبها .. وكذلك فعلت جارة اخرى واطلت من الطابق الاعلى وهى تستند الى درابزين السلم .

وقالت الست نعيمة :

ــ ورينى ياراجل الموز اللى وياك .

ومد الرجل يده ببساطة موز منتقاه ولكنها انحنت على القفص وقلبت ما فيه ثم قالت :

ــ دا موز مش قد كده ! تبيع بسبعة .. ؟

ــ ياست هانم دا موز مغربى .

وتحركت منى على بسطة السلم حتى اخذت وضعا مقابلا لامها ونظرت اليها نظرة تقول فيها بدون صوت : ياماما حرام عليكى ! دا راجل غلبان .. واشارت اليه والى ابنه الملتصق به من البرد فى جلبابه الذى لم يغسل قط .. كأنها تستعطفها على حالهما .

ونظرت الست نعيمة الى ابنتها منى وهى تقول لها :

(طيب يابوذا ....)

قالت ذلك متظاهرة بالتأنيب ، وان كانت فى أعماقها مستريحة الى عاطفة ابنتها الرحيمة التى اطلقت عليها لقب (بوذا) من يوم أن كانوا يتنزهون فى حديقة حلوان التى يتربع فيها تمثال بوذا .. تنطق ملامحه بالرحمة والطمأنينة ، ووقفت منى تتأمله معجبة ، والتقط لها المصور صورة مع بوذا لاتزال تحتفظ بها .

والتفتت الست نعيمة الى بائع الموز وقالت :

ـ طيب اوزن « وقتين » ..

ثم التفتت الى ابنتها ونظرت اليها فى شبه ابتسامة كأنا تقول لها : استرحت يابوذا .

وتناول الرجل العجوز النقود بيد مرتعشة وأخذ يضعها فى خرقة ويعقد عليها وهو يقول دون أن يحول نظره عن النقود والخرقة :

ـ والنبى ياست هانم تشوفى للواد ده .. لقمة .

وذهل الولد فى سرور غامر عند ما جاءه رغيف كامل وقطعة كبيرة من الحلاوة الطحينية ، ولم يتمهل .. فأعمل فيهما أسنانه وفمه قضما وبلعا لامضغ يذكر بينهما .

وكان الثلاثة ينظرون اليه فى سعادة وهو يأكل ويقضـــم على السلم .. والده ، والست نعيمة الطيبة ، .. وبوذا الرحيم .


أمينه

أمينة بالقلم وفتحت كراسة المحاضرات التى استعارتها من أحد زملائها الطلبة وشرعت تنقل المحاضرة التى فاتتها ، ومضت فى الكتابة قليلا ، ولكنها انتهت الى انها تكتب آليا دون فهم ماتكتبه ، ولهذا وقفت عند كلمات غير واضحة لم تستطع أن تفهمها من السياق لان السياق نفسه غير مفهوم ، فتوقفت عن الكتابة . وذلك لان عقلها كان فى شيء آخر ، وعادت الى ذهنها كلمة امها التى قالتها لها منذ ربع ساعة وهى تحذرها ضياع الفرصة :

« اوعى تطيريه من ايديك »

وكانت امينة قد عزمت على ان تطيره ، تطير خطيبها احمد ، ولهذا أسرعت فى عناد واصرار الى مكتبها واعتصمت به وشرعت فى الكتابة لتخلص نفسها من لجة التردد والتفكير ولكن هاهى دى اللجة تطغى عليها فيسبح فكرها حائرا فيها .

كان احمد حقيقة فرصة ، شاب مكتمل الصفات التى تتطالبها فتاة مثلها ، وتظهر عليه ، وفى تصرفاته معها دلائل الاخلاص والمحبة . وهى تشعر نحوه بالارتياح وتعجبها شخصيته . وقد تقدم لخطبتها على ان يتم الزواج قريبا ويأخذها معه الى الخارج حيث العمل الذى ندب له .

وأمس كان عندهم ، وجلس معها بجوار مكتبها ، ورأى كراسة المحاضرات وقرأ عليها اسم الطالب ، ومرت على وجهه سحابة سريعة عاد بعدها الى مرحه واشراقه ، واستمر فى حديثه :

ـ وانت كما قلت تحبين السفر والرحلات . وستتاح لك الفرص بطبيعة عملى .

ـ ولكن يا احمد انا بدأت دراستى بالكلية ولا اريد أن اقطعها وكلها ثلاث سنين واخلص .

ـ ثلاث سنين ؟ ... من يضمن الظروف ؟

ولاحت منه التفاتة سريعة الى الكراسة .. كأنه يقول : ان مثل

هذه الكراسة من الظروف غير المضمونة .. ومن يعلم ؟ فقد ينشأ حب فى الكلية بينك وبين صاحب كراسة أو آخر .

ولم تنكر عليه فى نفسها افكاره التى لم ينطق بها .. حقا من يضمن الظروف ؟

لقد كانت قبل ذلك مصرة كل الاصرار على عدم الزواج حتى تتم دراستها وتنتظم فى عمل ، واقفلت قلبها امام مايغزو قلوب الفتيات من الشبان ، وهى الآن مترددة فى قبول الزواج من احمد ، كما تشعر نحوه بميل يوشك ان يكون حبا ، فمن يدرى مايأتى به الزمن فى ثلاث سنوات أو أكثر سيكون خلالها بعيدا عنها فى عمله بالخارج ؟

ان عليها أن تختار : اما القبول واما الرفض . وغرقت فى لجة التفكير . وجعل الموج يتقاذفها بين شاطىء القبول وشاطىء الرفض .. واعادت كلمة أمها « أوعى تطيريه من ايديك » الى ذاكرتها ماجعلها تتجه الى الشاطىء الآخر .

تذكرت أختها الكبرى انيسة التى قعدت فى البيت بعد التعليم الابتدائى وبلغت سن الزواج ، وصارت كأنها معروضة فى « فترينة » وسارت الأم كأنها « عارض » يعتز ببضاعته ولكنه يتلهف شوقا الى من يشتريها ! وكان الأب يسمى ابنته « الغلبانة مكسورة الجناح » .

كانت صور ذلك العرض .. عرض انيسة للزواج .. تمر أمام خيال امينة فتمعن فى الاتجاه الى الشاطىء الاخر : الرفض .

رأت أمها تصادق كل امرأة لها ولد او قريب شاب فى ظروف ملائمة تسمح له بالزواج ، وتفرح وترحب وتهش لكل من يحدثها عن مثل ذلك الشاب ، وسمعتها تعبر عن أمنيتها فى « عدل بناتها وسترهن » بدعائها بعد صلاة الفجر . شاهدت انيسة مرارا وهى تقبل من حجرة النوم لابسة أحسن ماعندها ومتزينة بأقصي ماتستطيع — تقبل فى حياء الى حجرة الاستقبال حيث يجلس العريس المنتظر .. وكان هذا المشهد يخيل لامينة ان العريس هو هارون الرشيد وان اختها احدى جواريه .. أو الجوارى اللاتى يجلبن له .. وكانت تتخيل نفسها موضع اختها يذهب « الرشيد » ولا يعود ، لان « الجارية » لم تعجبه ، فتشعر بالالم والرثاء لأختها شعورا تحس مرارته فى حلقها ، وتتذكر قول أبيها « الغلبانة مكسورة الجناح » وتردد فى نفسها : صحيح جناحها مكسور لاتستطيع الطيران . ولكن من الذى كسر جناح البنت ؟ انه الرجل ولا

شك ، اضعف المرأة ليتلذذ بالعطف عليها ويرضي غروره بحمايتها ويظهر الحصافة بالتحدث عن نقائص ذلك الضعف على انهـــا عيوب مخلوقة وموجودة دائما فى جنس النساء .

وكم رأت امينة من بنات يزعمن الحب ويظهرن التوله ، ولم يكن يخفى عليها أن الحب يطفو على السطح فى مشاعر هؤلاء البنات ليخفى مافى اعماقهن من الرغبة فى الزواج ، بدليل أن المغريات الخارجة عن شخصية الزوج كسيارته أو « فلته » أو مرتبه الكبير تزيد ذلك الحب وترفع حرارة الاعجاب !

وقد وقعت أختها الثانية فى تجربة من هذا النوع .. وكانت فى أواخر التعليم الثانوى وخطبها رجل غنى يكبرها بعشرين سنة ، ففرحت به المسكينة واظهرت حبها له .. كان مهربا من الامتحان ، ومن المعيشـــة الضيقة .. واغدق عليها مازاد فى حبها وجعلت تعامله كما يعامل صاحب المحل الذى يشترى كثيرا ولا يساوم ! ولكنه احس بشعورها المفتعل ، ومل طاعتها المطلقة ، ولم يتذوق طعما لموافقتها له على كل شيء .. ثم طلقها وعادت الغلبانة ومعها طفلتان الى بيت أبيها الذى خرجت منه بجناح واحد مكسور ورجعت اليه بثلاثة أجنحة متكسرة !

وكان أبو أمينة رجلا عادى التفكير على حظ متوســـط من التعليم والثقافة ، ولكن فكره كان مرنا ولم يكن عقله مقفلا ، لهذا كان يتقبل من ابنته ماتبديه من أفكار تحررية ، ويظهر أن تجربته مع ابنتيه السابقتين وظروف زواجهما جعلته يستريح الى ما اعتزمت أمينة من اتمام دراستها الجامعية والتسلح بالعمل وكـــان يضـــحك بارتياح واطمئنان حينما تقول له :

ــ أنا يابابا مش غلبانة ولا حاجة .

فيتبسط قائلا :

ــ طيب « مش غلبانة » دى عرفناها ، « ولا حاجة » دى تبقى أيه ؟

ــ ولا حاجة يعنى ولا جناحى مكسور .

ثم تستطرد امينة فى جد :

« ان الوظيفة تخلق العضو بمعنى أن الحاجة الى فعل من الافعال تدفع الى القيام به ، فيقوى العضو الذى يقوم بالعمل بل يوجد العضـــو

اذا لم يكن موجودا . وانا اريد ان اطير بنفسي فلابد ان يكون جناحي سليما وقويا » .

ولذلك لما جاء احمد يخطبها ترك لها الأمر ، واثقا من حسن تقديرها للموقف .. اما الأم فكانت فى دمها الرغبة الملحة دائما فى تزويج بناتها « وسترهن » .

تلك الرغبة التى تولد مع البنت حين تعرف الأم ان المولود انثى وليس ذكرا .. وتنمو مع الاغنية التى تنام عليها الطفلة :

ياعروســـة من زمان	وأنت فى بـــرج الحمـــام
افرش لك الفرش الغـــالى	والمخـــدة ريش نعـــام
ياحبيبـــة ياحبيبـــة	ما جـــوزكيش غـــريبة
اجـــوزك لابن عمـــك	عشـــان تبقى لى قـــريبة

وعند ما تكبر البنت ، بل قبل ماتكبر ، تكون دعابات الام مع الاولاد المعارف والاقارب أنها ستزوجهم ابنتها . تخص الواحد منهم بالاعـــزاز حينما تقول له : « ياعريس بنتى » !

كانت تلك الصور والخواطر تدور فى نفس امينة حين توقفت عن الكتابة وراحت تفكر فى الزواج المعروض عليها ، وكانت برغم دوامة التفكير التى تلفها ، مستريحة النفس الى انها فى وضع كريم من حيث انها غير مضطرة الى اصطناع المغريات التى تجذب العريس كما كانت ترى الأخريات .. وهى ترغب بغريزتها فى الزواج ، ولكنها لاتريد ان تكون تمثالا فى « فترينة » .

وقالت لها أمها وقد دخلت عليها وهى على تلك الحال من التفكير :

ــ أحمد جاى النهارده على حسب الميعاد .

ــ جاى النهارده ؟ .

ــ ايوه .. والميعاد قريب .. مش تقومى تغسلى وشك وتسرحى شعرك و ..

ــ وأحط أحمر ..

ــ يابنتى دا جايلك وبيلح عليكى وانت معززة مكرمة . هو أنت يا أمينة حا تعيشي من غير جواز ؟ .

ــ كل شيء له وقت ياماما .

— الوقت دا هو عزه . مين عارف بعد ماتتخرجى وتشتغلى حيكون ايه ... دلوقتى صغيرة وحلوة .. ساعتها يمكن ماتلاقيش عدلك ، وسنة فى سنة يفوتك سن الجواز ياشيخه سيبك بقى من السهر ووجع العينين وحرق الدم بالقراءة فى الكتب .. « صحتك عدمت » .

ودخلت « سوسو » الصغيرة بنت الأخت المطلقة ، وقالت بلهجة سريعة :

— طنط أمينة .. أحمد جه .

واستحثت الأم ابنتها بنظرة وابتسامة مشجعة لتقوم وتستقبل خطيبها ..

وقالت الطفلة :

— طنط امينة ، انت حاتتجوزى احمد ، بعدين يطلقك زى بابا ماطلق ماما !

واغتاظت الجدة ونهرت حفيدتها :

— بتقولى ايه يا مقصوفة الرقبة ؟! .

واتجهت نحو امينة وهى تكمل :

— هى كل الرجالة زى بعضها ؟

— مافيش فايدة ياماما ! ..

— ....

— روحى قابليه أنت ...



في المعاش

أحيانا أن يسيء اليك أحد ، ثم تتبين ان اساءته كانت خيرا لك مما لو أحسن اليك ، ويتغير شعورك نحوه .

ذلك حدث لى ، وقد تذكرته عند ما لمحت الرجل العجوز فى القهوة حيث كنت أجلس فى انتظار صديقى ، وقد فات الميعاد ولم يحضر ، ومللت الانتظار ، وتضايقت من الحاح الباعة الجائلين ومن أصوات نداءاتهم المختلطة بضربات حجارة الطاولة ، ومن دق ماسح الاحذية على صندوقه بالفرشة .. تمسح يابيه .. امواس حلاقة .. أمشاط .. شيش بيش ... بطارخ عال قوى .. تاخد الجيل وتجيب روزا وقرش .. الخ .

وهممت بالانصراف لولا أن لمحت ذلك الرجل العجوز الذى يتفرج بآخرين يلعبون الطاولة وقد اعتمد بذقنه على عصاه انه « كامل افندى » كما كنا نسميه بعيدا عنه ، أو « كامل بك » كما كنا نخاطبه ارضاء لغروره مثل غيره من الموظفين الذين تكون لديهم أشياء مهمة بالنسبة للأفراد الذين يترددون عليهم لانجازها .

لم اكن قد رايته من نحو عشر سنوات ، ولابد أنه الآن فى المعاش ، وقد ظهر عليه الكبر ، ورسمت الشيخوخة خطوطها على وجهه ، وهو يجلس مع أولئك الذين يكونون فى بعض القهوات « شلة المعاش » . وكان الوقت قبل الظهر حيث تعمل الدواوين .

عرفته برغم التغيير الذى طرأ عليه ، وان كان الطربوش على رأسه لايزال فى الوضع نفسه .

تحول السيد : كامل — كما نحب ان نسميه الآن — عن بائع البطارخ بعد أن فحص قطعة منها وشمها ، وساوم البائع على ثمنها ، وقال له وهو يتجه الى لعب الطاولة : كلام واحد : وأن مشيت ورجعت تانى مش حاخد .

هو بعينه .. وهاهو ذا يقول للبائع ، كما قال لى منذ عشر سنوات .. ولم اكن أبيع له شيئا وانما كنت طالب وظيفة فى المصلحة التى كان رئيس قلم المستخدمين فيها . لم افهم وقت ذاك لماذا وقف فى سبيل اعادة الكشف الطبى على نظرى وانا بنظارة بعد أن رسبت بدون نظارة .

ثم لماذا هو كلام واحد مادام من الممكن ان يكون له ثان ، ولكن اذا تفلسفنا قليلا ، وصرفنا النظر عما كان ممكنا وما ليس له فيه حق ، نستطيع ان نفهم .

ان السيد « كامل » يعيش فى القهوة حياة تشبه الحياة التى كان يعيشها فى الديوان . أو هو يريد أن يعيشها ، فهو يثبت وجوده بالتحكم فى الباعة ، كما كان يتحكم فى اصحاب الحاجات من الجمهور . الم يكن يعطل « الورق » ليأتى أصحابه ــ أصحاب الورق ــ يرجونه ويتوسلون اليه ببعض ذوى النفوذ ؟ فيرضي بذلك نفسه ويعوضها عما يلحقها من المهانة مع رؤسائه والشعور بالضآلة امامهم والحاجة الى نفوذهم فى ترقية أو حماية من النقل الى الصعيد .. وغير ذلك .

ولم اتحقق تماما ، هل كان السيد كامل ممن يعطلون الاعمال والمصالح كى يفيد من ذلك فى سد العجز الناشيء ، من عدم كفاية المرتب أو فى الحصول على شيء من الترف لا يحققه له المرتب ؟ فلم اكن عندما وقف فى سبيلى الى الوظيفة على حالة مالية تسمح بأن أخوض معه هذه التجربة . وقد رأيت بعض المتقدمين للوظيفة رسبوا فى الكشف الطبى كما رسبت ثم سمح لهم بالاعادة ، وقال لى احدهم : انه أتى « بواسطة كبيرة ».

لقد شعرت يوم ذلك بالحسرة والألم شعورا لم أذق مرارته فى يوم آخر ، ولا أزال احس به فى حلقى كلما تذكرته ، كان شعورا بالظلم مع الحرمان والخيبة ، وكرهت « كامل أفندى » وداخلتنى الرغبة فى الانتقام منه ، لان الظلم والحرمان والخيبة تمثلت لى كلها فى شخصه ، ولكن ماذا عسي أن أصنع ؟ ان كل همى أن احصل على اللقمة ، فلأسلك سبيلا غير هذا وادع « كامل أفندى » يتصرف كما يشاء فى عباد الله الذين تدفعهم الظروف اليه .. يعطى المحاسيب والمحظوظين ، ويمنع أمثالى المساكين !

نعم أنا مسكين .. أمضيت سنة فى الكلية ، ولم يشفع لى الفقر فى الحصول على المجانية ، فانتزعت مجانية التفوق من بين الانياب الزرق .. انياب موزعى الارزاق على المحاسيب الذين يمتون الى ذوى النفوذ بمختلف العلاقات والاسباب .

ومع ذلك يبدو لى أن الاستمرار فى الكلية مستحيلا ، فقد كنت محتاجا الى النفقات الشخصية ، كأجر السكن وثمن الطعام والملابس وما

الى ذلك . وعزمت على ترك الكلية وطرق باب الوظيفة الحكومية .. وهاهو ذا كامل افندى يقفل فى وجهى هذا الباب .

« يا افندى خلاص »

قالها لى مؤنبا على الحاحى بالمناقشة فى استحقاق اعادة الكشف ، ومتى تكون ؟ ولمن تكون ؟ ولماذا يفضل شخص على آخر ؟ . و ... الخ . ولم تكن مناقشة بالمعنى الصحيح . بل كانت كلاما منى وسكوتا منه ، استصغارا لى واهمالا لشأنى ، واخيرا تكرم بالكلمة السابقة « يا افندى خلاص » وكان فيها أمر بوجوب الانصراف والكف عن « وجع الدماغ » ..

والواقع أن معاملة السيد : كامل — الجالس الآن فى القهوة — للباعة فيها شيء من اللين والتسامح لم يكونا فى معاملته بالديوان لامثالى — من أصحاب الحاجات الذين لاوساطة لهم ولا نفع فيهم .

فقد عاد بائع البطارخ وهو يقول للسيد كامل :

« تاخد يابيه ب ٣٠ قرش ؟ »

ولما رآه ساكنا لايلتفت نحوه قال :

« طيب زى بعضه خليهم ٢٥ . أصله غالى يابيه .. والله العظيم الحته دى تقع على بأربعة وعشرين » .

والتفت السيد « كامل » نحو البائع فرآه ممسكا بقطعة البطارخ المستطيلة ، وقد بدأ لونها الاصفر فى عناية الذى يمسك بشيء نفيس . ويظهر أن السيد « كامل » داعبه الرجاء فيما يقال عن محتويات البطارخ من الفوسفور والفيتامينات وتأثيرها السحرى فى بعث الحيوية ونشاط الشباب ، فقال للبائع فى حزم ظاهرى :

« أنا قلت كلمة واحدة : ٢٠ قرش .. بس ! »

وتسامح فى تهديده بعدم الشراء من البائع اذا ذهب وعاد .. كما أبدى البائع تساهله فى البيع بأقل من الثمن الأصلى .. علشان خاطر البيه لأنه زبون !

وقفز الى خيالى تصور عجيب .. ترى لو أنى عدت الى كامل افندى فى الديوان بعد أن قال لى « يا افندى خلاص » بهدية بطارخ ، وقدمتها اليه بطريقة مستورة لبقة .. أفلم يكن يعيد النظر فى الموضوع . فيقول لى مثلا :

انا قلت لك كلمة واحدة .. النضارة يعنى لازم النضارة .. الكشف الثانى لازم يكون بالنضارة !

وبذلك يتسامح فى المبدأ الذى تمسك به أولا وهو عدم اعادة الكشف مطلقا ولو بالنظارة .. هذا مجرد خيال ، وليس فكرة عملية ، لأن الوقت قد فات !

ولو خطرت لى تلك الفكرة فى ذلك الوقت ، وفرضنا انى كنت املك ثمن الهدية او استطيع الحصول عليها بأية وسيلة وقدمتها ، وتم ذلك التصور كما تخيلته ونجحت فى الكشف الطبى ، وعينت فى الوظيفة الكتابية التى كنت متقدما لها ، لكنت الآن فى الطريق ، الذى كان فيه السيد « كامل » نفسه على أحسن تقدير ، والذ» افضى به كما كان يفضى بى ، عند بلوغ سن « المعاش » الى القهوة . والبطارخ ؟ .

ولكن الله سلم ..

فقد اغلق باب تلك الوظيفة فى وجهى ، وعدت الى الكلية ، وبدأت الكفاح من اجل اللقمة بطريق آخر ، فحصلت على عمل بعد الظهر ، كان واضحا فيه استغلال صاحب العمل لحالتى واحتياجى ، وان كان قد تظاهر احيانا بالعطف على ، ومساعدتى على اتمام الدراسة ، ولكن لم يكن بد من ان اقبل واغضي ، بل واشكر .

واتممت دراستى فى كلية الهندسة واصبحت مهندسا ، نعم أنا موظف فى الحكومة ، ولكنى استطيع العمل الحر ، فاذا اقتضت الظروف ان اخرج من خدمة الحكومة وجدت ميدان العمل فسيحا ، فليست الوظيفة الحكومية هى كل شيء فى حياتى العملية .. واذا بلغت سن الاحالة على المعاش استأنفت حياة عملية أخرى . ولم اشعر بانى مواطن غير منتج فى المجتمع ، ذلك الشعور الممض الذى يلقى بصاحبه فى الفراغ الهائل الذى يفصل بين الحياة والموت .

مسكين السيد / كامل .. ان شعورى نحوه الآن مختلف عما قبل .. لو كان يتذكرنى لقمت وسلمت عليه . ولكن ما اظن انه يعرفنى ، فقد تغير شكلى ولا شك . اصبحت على الاقل بشنب ثم انا واحد من كثيرين مروا به . ولم تكن مسألتى ولا انا الا شيئا عاديا جدا يمر امام موظف مثل كامل افندى .

ومع ذلك فقد يذكرنى ، لسبب ما ، ولكن هذا احتمال ضعيف .

وما اثقل ان اسلم على احد واذكره بنفسي ، وقد احسست بذلك مرة قابلت فيها احد اساتذتى بالمدرسة الثانوية وكان يعرفنى فى المدرسة ، فلما سلمت عليه لم يظهر على وجهه اى شيء يدل على انه يعرفنى ، برغم نظرته الراضية الواثقة بأنى لابد أحد تلاميذه فى الماضي ، وكانت نظرة الاستاذ تعبر عن الرضا لأنه يرى انتاجا له .

أما السيد/ كامل .. فياترى ماذا يكون شعوره اذا عـــرفنى ؟ فلأجرب .. وهجمت عليه بالسلام والكلام :

ــ اهلا وسهلا .. ؟

قالها كمن يســـــأل من أنا ؟ فأجبته وذكرته .. ولكن الرجل كان مدهوشا . وكانت نظرته قلقة وانصرفت آسفا لأنه لم يدرك حقيقـــة مشاعرى .

مات ایدن



استلقى « جعفر » على « العنجريب » الذى وضعه بجانب الحائط قريبا من « الكشك » ولا تنس أننا فى مدينة « أم درمان » حيث الشمس الحامية .. كان حزينا على كلبه الذى صرعته احدى السيارات العابرة فى الشارع امام الكشك .. وهذا الكشك الخشبى هو مأوى جعفر ومحل عمله يبيع فيه السجائر وزجاجات البيبسي والكوكاكولا والانواع الاخرى، وينام به متكوما فى بعض الليالى الباردة فى شتاء السودان القصير الامد ، اما فى النهار وقت القيلولة وفى الليالى الحارة أكثر العام ، فانه ينام على عنجريبه ذاك ، تظله نهارا حائط المنزل المجاور وفى الليل يتطلع الى النجوم فى السماء الصافية حتى ينام . وحمامه اليومى عند الفجر فى نهر النيل . وكان كلبه الفقيد يوقظه فى الموعد المحدود .

ولم يشهد جعفر مصرع الكلب العزيز .. اذ كان قد ذهب فى الصباح الى المديرية بالخرطوم لاستخراج رخصة الكشك بعد أن ضايقه رجال الشرطة وهددوه بتحطيم الكشك وازالته ان لم يستخرج الرخصة . وقد كلفه رسم الرخصة ودهن الكشك بالبوية على حسب اوامر البلدية ، مبلغا كان محتاجا اليه فى شراء مفرمة لفرم « الكبكبية » — الحمص — الذى تصنع منه الطعمية .. كالمتبع فى السودان ، بدلا من الاستعانة بمفرمة المطعم القريب.وهو يستعين بصنع الطعمية وبيعها فى سندوتشات لتلاميذ المدرسة القريبة وبعض الجيران الفقراء ، على استكمال رزقه الذى لايكفيه من بيع السجائر والمشروبات الغازية ، لقلة المارة فى الشارع وقلة كثافة السكان ، فالمنازل تشغل مساحات واسعة ، وكل منها طبقة واحدة تغله عائلة واحدة ، وسكان الحى لايزيدون على سكان عمارة كبيرة .

ومن زبائن جعفر المستديمين على شراء الطعمية « حسنة » الارملة الشابة وولداها الصغيران اللذان تركهما لها زوجها وتوفى ولم يترك لهم مايعيشون منه ، فاضطرت الى العمل ، وزاولت اعمالا مختلفة حتى وفقت الى وظيفة فراشة بقسم النساء فى مستشفى أم درمان .

ووقتها بطبيعة عملها لايتسع لصنع الطعام فى المنزل لهذا تعتبر طعمية جعفر صنفا اساسيا فى غذائها وغذاء ولديها بالمنزل ، ترسل واحدا منهما لشرائها من جعفر أو تذهب هى اليه لتدردش معه قليلا ،

فيزيدها بعض الاقراص .. وكان يشعر بها كقطة لطيفة تتمسح به فيحس برعشة وراحة ..

ولما عاد جعفر من المديرية وجد جثة الفقيد الذى صرعته السيارة فى غيابه .. وليس منظر جثث الاعزاء غريبا عليه .. فقد كان جنديا بجيوش الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية ، وكثيرا ماتمزقت أمامه اجساد زملائه وأصدقائه ، وكثيرا ماسحبها وحمل اشلاءها وكان يجزع ولكنه لم يكن يبكى ، لأن تلك الاهوال المتتابعة جعلته يعتاد مناظرها وجمدت الدموع فى عينيه ! ..

ولكنه فى هذه المرة أمام جثة « ايدن » — اسم كلبه — لم يملك دمعة فرت من عينه .. انه يعيش فى سلام مؤنسا برفيقه ايدن .. وهاهو ذا فى خلال الطمأنينة التى يعيش فيها يفقد هذا الرفيق الانيس العزيز .

أسماه « ايدن » لانه حصل عليه صغيرا أيام اعتداء « الحلفاء » انجلترا وفرنسا واسرائيل ، على مصر سنة ١٩٥٦ ، وكان « ايدن » رئيس الوزارة الانجليزية فى ذلك الوقت رأس المدبرين لذلك الاعتداء .

« الحلفاء » عند جعفر كلمة كريهة يكاد يشم منها رائحة الغدر واللؤم والرذائل كلها .. انها تعيد الى ذاكرته أسوأ أيام حياته ، تلك الايام التى سيق فيها الى القتال فى صف اعدائه المستعمرين لبلاده ؛ وكاد عند ذاك ينخدع بما كانوا يدعونه من الصداقة للشعوب التى يستعمرونها وما يرددونه من انهم اذ يرغبون فى معاونتها لهم سوف يجازونها على هذه المعونة بتوفير الحرية والرفاهية لها بعد الحرب .. ولكنه تيقن كذب تلك الدعوى عندما انخرط فى سلك جيوشهم ورأى غطرسة الجنود الانجليز ونظراتهم التى تنحدر من أعلى الى جنود المستعمرات فى الوقت الذى يقدمونهم فيه الى الموت ويحتمون وراءهم..

وكان جعفر يسمع أنباء المعركة فى بور سعيد وهو يكاد يطير اليها شوقا .. وليلة انقطع صوت الاذاعة المصرية عقب الاعتداء على اجهزتها بابى زعبل كاد يجن .. كان يود ان يشاهد جثث المعتدين فى بور سعيد ، فاذا هو يرى الراديو الصغير — الذى اشتراه مستعملا — كأنه جثة هامدة لانه لاينطق بالانباء الحقيقية للمعركة ، فاذا نطقت به اذاعة لندن فانه يسمع صوت القاتل ينبعث من جثة القتيل مزعجا كريها يحمل شماتة وقحة متبجحة ..

وعاد اليه بعض الاطمئنان عندما تولت محطة أم درمان اذاعة انباء

المعركة وضاعفت عدد نشراتها الاخبارية ، معلنة بذلك انها تسد النقص الناشيء عن الاعتداء على الاذاعة المصرية ..

وأسرع جعفر فى مقدمة المسرعين الى قيد اسمائهم للتطوع والسفر الى مصر .. وعنى عناية خاصة بذكر انه لايحتاج الى تدريب فهو مدرب جاهز ، لكى يعجل بسفره .

وجعل ينتظر الامر بالسفر وهو يزأر كالاسد الحبيس فى قفص . ولم ينتظر ساكتا بل كان يقود المظاهرات الشعبية الهاتفة بحياة مصر والعرب وسقوط الاستعمار والويل للمستعمرين وكان يحمس طلبة المدرسة الثانوية الذين يأتون اليه فى الفسحة لشراء السندوتشات والمشروبات الغازية ، ويحكى لهم — ليزيد حماستهم — حكاية المعلمة الانجليزية فى مدرسة البنات الثانوية ، اذ قالت للطالبات : لماذا تثرن ؟ فقلن لها : لاننا عرب ، وأرادت أن تستمر فى سخفها فثارت الطالبات واقفلن باب الفصل وضربنها علقة ساخنة حملت بعدها على عربة الاسعاف الى المستشفى .. ولما أعلن انه لا حاجة الى سفر المتطوعين ثار جعفر .. وحملته ثورة نفسه على اتهام المسئولين بالتكاسل وعدم الاهتمام بالمساعدة الجدية لمصر .

ثم رأى سلوته فى شيء يبدو تافها .. اتى بذلك الكلب الصغير وأسماه « ايدن » ليصب عليه لعناته وأعد له خيزرانة رفيعة ليؤدبه بها..

وهو الآن يعجب كيف صار ايدن بهذه المنزلة من حياته ومن نفسه.. انه يعيش وحيدا نافرا من عشرة الناس .. فصار له ايدن عشيرا مخلصا، وقد عوده عادات نافعة فصار يؤدى له خدمات .. كان يحرس الكشك وما به فى غيبته ، وكان يوقظه عند الفجر ليأخذ حمامه اليومى فى النيل ويصلى ويعد عدة الطعمية ، وكان لسبق الاصرار على معاملته بالقسوة كى يفرج عما بنفسه من الغضب والكراهية للعدوان الذى يرمز اليه من أسماه باسمه .. كان لذلك أثره فى تدريب الكلب وتأديبه . وقال مرة لمن لامه على ضربه بعنف :

« انى اؤدبه كما أدب جمال عبد الناصر ... ايدن »

ولكن « جعفر » لم يكن يتوقع ان يحزن لموت كلبه ايدن كل هذا الحزن .. حاول أن يصطنع الصبر بعد أن ذرف تلك الدمعة ، وردد فى نفسه المثل القائل :

« الجنازة حارة والميت كلب » ..

ثم احضر له خادم المطعم القريب ماكان قد طلبه ، وهو طبق من « الملاح » ورق اللوبية المطبوخ ، مع قطعة من لحم البقـــر وبعض « الكسرة » : الخبز السودانى الشعبى الطرى الرقيق الذى يمتاز بوفرة الخميرة وغلبة طعمها عليه . وجعل يأكل وهو لايشعر للأكل بطعم على رغم تجلده ومحاولة التخفيف عن نفسه ، فلما تناول قطعة اللحم ووصلت اسنانه فيها الى العظم تلفت حوله بحكم العادة .. فلم يجد ايدن .. كان يلقى اليه بالعظم مبقيا عليه بعض اللحم ..

والآن عند ما تنبه لعدم وجود ايدن أراد أن يقول فى نفسه :

« لاداعى لابقاء اللحم على العظم » .

ولكنه لم يستطع أن يبلع مافى فمه ..

وهاهو ذا جعفر مستلقيا على ذاك العنجريب فى ظل الحـــائط المقابل للكشك واستغرق فى الاسي والتفكير ووحدته ، كما غرق جسمه فى سطح العنجريب المجدول من حبال الليف .

انه يتساءل :

لماذا لايأتى اليه الناس يعزونه .. أولئك الذين طالما ذهب اليهم وعزاهم فى فقد اقاربهم وشاركهم فى حدادهم باغلاق الكشك والامتناع عن العمل ايام الحداد ، فلا اقل من أن يردوا اليه الجميل بالعـــزاء فقط !

وعندما يرى رجلا مقبلا يتصوره قاصدا اليه وهو يرفع يديه مع ثنى الاصابع والذراعين ويقف امامه ويقرأ الفاتحة .. على طريقـــة التعزية السودانية . ولكن الرجل يمر وقد يحييه تحية عادية ، كأن « جعفر » لم يمت له أحد ..

ثم لمح امراة آتية على بعد .. انها حسنة عائدة من المستشفى الى منزلها ، ملفوفة بملاءتها البيضاء الهفهافة المكوية التى تنحسر الى اعلى عن ساقين ملفوفتين ولما اقتربت منه فى طريقها نظرت اليه بعينى القطة المتمسحة ، اللتين تطلبان الحنان وتمنحانه ..

وقالت تحييه :

— عوافى ياجعفر ..

— مرحب ..

قالها فى اقتضاب بصوت خفيض .. ومضت حسنة فى طريقها ، وفى المنزل حكى لها ابنها الاكبر كيف صرعت السيارة ايدن كلب جعفر ، فأدركت سر اكتئابه ، وهى تعلم مقدار تعلقه بكلبه برغم قسـوته فى ضربه ..

وعادت اليه ، ووقفت أمامه رافعـة يديها .. محـركة فمها بالفاتحة .. فقام يرد عليها التعزية بالمثل ..

وكان هذا العزاء قد مسح حزن جعفر كله ، فتوجه الى الكشـك فى نشاط وارتياح وكان الظل قد امتد وانكسرت حدة الحر ، ودبت الحركة فى الشارع ، وعرج بعض المارة على الكشك يرطبون أجوافهم بالمشروبات الغازية الباردة ، وجلس اثنان منهم امام الكشك ، أحدهما على حجر والاخر على الارض ..

قال الجالس على الحجر :

ــ تعرف معنى « مرتاح » ؟ ..

فقال الآخر فى لهجة التلميذ المتلجلج :

ــ مرتاح .. يعنى مرتاح ..

ــ مرتاح .. كلمة مكونة من خمسـة حروف ، الميم منزل والراء راديو ، والتاء تليفون ، والألف أتومبيل ، والحاء حرمة . ومن يملك هذه الاشياء الخمسة فهو مرتاح .

التقط سمع جعفر هذه الاشياء الخمسة .. ثم ثبت نظره على الراديو الصغير القديم ، وقال وهو يفتحه على اذاعة أم درمان :

« ماعندى من الخمسة الا الراديو .. حتى المنزل مافى .. »

وسرح فكره ، ثم قال فى نفسه ايضا : والحرمة ..

وتصورت أمامه صورة حسنة رافعة يديها المخضـبتين بالحناء وفمها يتمتم .. وتحرك فمه .. ليقرأ معها الفاتحة ..

مدرسة الشعب



السيد شاكر ... موظف صغير ... مرتبه قليل ، وله ولد صغير ... يتعلم فى مدرسة خاصة ابتدائية ذات مصروفات قال فى نفسه يوم عزم على الحاقه بها :

« سامى ولدى وحبيبى ، لا يصح ان ادفع به الى المدارس العامة المجانية التى يدخلها كل من هب ودب .. والتى يقال انها لا تعنى بتعليم الاولاد كما ينبغى حتى ان الآباء يضطرون الى ان يأتوا لاولادهم بمدرسين خصوصيين .. بالاضافة الى بذاءة الالفاظ وسيىء العادات التى لابد أن يقتبسها سامى من أولاد الشوارع والحارات ...

والواقع ان هذه المعلومات قد رسبت فى ذهنه مما يسمعه من بعض زملائه فى الديوان وغيرهم ممن يأسفون او يتظاهرون بالأسف على التعليم الذى كان لا يناله فيما مضي الا اولاد الناس الطيبين ..

وقالت له زوجته يوم ذاك :

ــ لكن ياشاكر حانجيب المصروفات منين .. ؟ « متخليه يروح » زى غيره ..

قالت ذلك وهى تشعر بأسي لأنها تشارك زوجها فى مشاعره نحو سامى الحبيب . وترجو له ما يرجوه أبوه من رقى .. ولهذا ودت فى نفسها أن يتفتق ذهن زوجها عن حيلة يدبر بها نفقات المدرسة الخاصة ...

وزغردت الامنية فى اعماقها حينما رد عليها قائلا :

ــ اسمعى عندى فكرة .. « انا بشرب سجاير بكام » ؟

وضرب ثمن السجائر التى يدخنها فى اليوم الواحد فى ٣٠ عدد ايام الشهر ثم ضرب حاصل الضرب فى ١٢ عدد شهور السنة وزوجته تصغى كأنها تستمع الى غناء جميل .. وساعدته فى الضرب والجمع والنظر فى مطابقة المبلغ الذى سيوفر من التدخين بما سيتكلفه سامى فى المدرسة .

وخرج الزوجان من ذلك بنتيجة طربا لها وقالت الزوجة تحيى زوجها وتشجعه .

— يعنى انت حاتبطل السجائر صـــحيح .. ؟ تبقى بطل بحق وحقيق .

— ياسلام ياسونة .. دا سامى .. سجائر ايه وبتاع ايه .

ولكن سامى الآن تلميذ فى مدرسة ابتدائية مجانية من المدارس التى يدخلها كل من هب ودب من ابناء الشعب .. بعد أن قضي أربع سنين فى المدرسة الخاصة وهو برغم قلق ابيه مستريح فيها .. لايشعر بما كان يعانيه فى المدرسة الخاصة من احساس بالفقر ازاء أولاد الاغنياء الميســورين . ان هؤلاء لطاف ظراف هادئون نسبيا . ولـــكن مظاهرهم وأحاديثهم وحركاتهم تنم عن اشياء لا يجدها فى حياته . كانوا مثلا يتحدثون فى مستهل كل عام دراسي عن البحر والبلاج وما استمتعوا به فى المصايف من ألوان المتع وكان يسمع ذلك كما يسمع فى الحكايات الخيالية عن جزيرة « السبع بنات » والكنوز التى تحرسها الفيلان .. حقا انه قضي مع والديه فى الصيف الماضي اسبوعين فى الاسكندرية عند بعض اقاربهم هناك ورأى البحر والبلاج ولبس المايوه ونزل فى الماء ولعب على الرمل ولكنه كان يعلم ان اباه يحقق له رغبته على قدر ما يستطيع وهو قدر ضئيل ولم يمنعه ذلك من أن يشعر بالسعادة لأنه سيستطيع عند عودته الى المدرسة ان يتحدث عن البحر والبلاج .

أما الأب « شاكر » فهو حزين من أجل ولده . لقد اضطر فى هذا العام أن يحوله من المدرسة الخاصة ذات المصروفات الى المدرسة المجانية العمومية لانه لم يستطع دفع المصروفات فقد ولدت زوجته وكلفته الولادة العسرة نفقات باهظة ، وصار له ولد آخر الى جانب بنتين أخريين اصغر من سامى ستبلغ احداهما سن التعليم فى العام القادم وستأتى بعدها الاخرى ثم يصل الدور الى المولود الجديد وســيحتاج الجميع — بخلاف من سيستجد — الى نفقات وتعليم ..

وانتهى شاكر — فى آخر حديث حزين مع زوجته سونة الى ان قال :

« فى مدارس الشعب متسع للجميع »

والولد فى المدرسة الجديدة المجانية منذ اسبوعين والوالد يتجنب الحديث معه عن المدرسة حتى لاينكأ جرحه .. ولكنه يدهش اذ يلاحظ ان الحال على عكس ما كان يتوقع .. كان سامى مرحا ولا يبدى أى تذمر أو شكوى من المدرسة .. وكان شاكر يعزو مرح ابنه الى طبيعة

الطفولة التى تدفع الاولاد الى استقبال الحياة بالاستبشـــــار مهما كانت ..

وأخيرا تشجع شاكر وسأل « سامى » وهو يرنو اليه فى حب :

— هيه — ازى الحال .. مبسوط فى المدرسة ؟

— أما يابابا .. الاستاذ رجب داراجل عظيم .

— من الاستاذ رجب ؟

— مدرس العربى .

— ماذا فعل ؟

— تتصور يابابا .. على فكرة ... الاستاذ رجب بيخلينا نتكلم باللغة العربية الفصيحة . وبيقول لنا اذا قابلتم أناسا من البلاد العربية الاخرى ولم تتمكنوا من ان تتفاهموا معهم يمكنكم ان تتكلموا معهـــم بالعربى الفصيح يبقى احسن لان كلنا عرب ولغتنا هى اللغة العربية..

— طيب ، تكلم معى بالعربى الفصـــيح .. حدثنى عما فعـــل الاستاذ رجب .

— كان الاستاذ رجب يجمع منا معونة الشتاء ويحثنا على التبرع للفقراء والمساكين والايتام ويقول لنا : ليدفع كل منكم ما يستطيع مهما كان ليثبت أنه مواطن يتعاون مع مواطنيه وكان يمر بين الصفوف فمن التلاميذ من يعطيه ومنهم من يرجوه أن ينتظر الى غد حتى يحضر نقودا من ابيه .

— وانت .. هل دفعت ؟

— ليس هذا هو المهم يا ابى ..

— قل ، اكمل ..

— التلميذ حسن عبد البر يتيم .. ولما وصل اليه الاســـــتاذ راه يبكى .. فسأله عن سبب بكائه فأجاب :

— اريد ان ادفع .. لكن ليس معى نقود .

— لا بأس فلتدفع غدا .. ولا داعى للبكاء .

وغادر الأستاذ مقعد حسن متجها الى التلميذ الذى بعده ...

وسمعنا صوتا عاليا آتيا من سيارة تمر بالشارع فيها ميكروفون وكان صاحب الصوت العالى يقول :

ـ تبرعوا لمواطنيكم الفقراء ... تبرعوا للمساكين ... تبرعوا للأيتام ... تصوروا أيها المواطنون طفلا تركه ابوه وهو فى المهد لا يجد طعاما ولا كساء .

وعلا صوت حسن بالبكاء .. فعاد الاستاذ يقول له :

ـ لماذا تبكى يابنى .. ؟

فقال احد التلاميذ :

ـ اصله يا أستاذ .. والده متوفى :

فاقترب الاستاذ رجب من حسن وربت على كتفه قائلا :

ـ ما اسمك .. حسن عبد البر ؟ طيب ياحسن .. لاتحزن ... انا كوالدك .. اعتبرنى والدك ياحسن .. اذا احتجت لأى شيء فأنا موجود ..

واخرج الاستاذ رجب من جيبه قرشين ووضعهما فى المنديل الذى يجمع به النقود ثم كتب فى الورقة وهو يقول بصوت مسموع :

« قرشان من التلميذ حسن عبد البر » .

درجة
بالاختيار



« رايى ياسيادة الوكيل .. كما ترى ...

كان هذا رد السيد احمد سليمان رئيس المستخدمين على وكيل الوزارة وقد سأله عن رأيه فيمن يستحق الدرجة الرابعة الخالية بادارة المستخدمين والتى رشح للترقية اليها اثنان من الموظفين هما الانصارى والشيخ فهمى وكان لابد من اختيار احدهما .

وكان السيد احمد – حينما قال ذلك – يتفرس بأدب فى وجه وكيل الوزارة عساه أن يعرف رأيه من أساريره فيتابعه فيه .. فهو وان كان يميل الى اعطاء الدرجة للشيخ فهمى برغم ان الانصارى أقدم منه فى الدرجة الخامسة لا يهمه فى الحقيقة فى هذه المسائل الا ما يهم السيد الوكيل .. أوقل ان هذا يهمه اولا ...

ونظر وكيل الوزارة الى رئيس المستخدمين الجالس على طرف الكرسي « الفوتيل » الى جانب مكتبه وكأنه لا يرى احدا .. وقال :

– الانصارى موظف « كفء » .

– نعم ياسيادة الوكيل .. ومجد فى عمله ...

وقال رئيس المستخدمين فى نفسه :

« لعنة الله عليك يا انصارى ياثقيل ، انى اكرهه لله فى لله .. فاكر نفسه شخصية مهمة جدا ، وفيلسوف حضرته .. وله مبادىء طيب ياسيد انصارى كفاية عليك المبادىء ..

واستأنف وكيل الوزارة الكلام وكأنه يحدث نفسه :

– لكن يا اخى .. الشيخ فهمى .. هذا الرجل عجيب .. وعلى فكرة يظهر ان الوزير يعطف عليه .. أمس جاء الى هنا وقال : انه رأى فى المنام انه يقبل يدى ولم اشعر الا وفمه فوق يدى ... حتى اخجلنى يظهر انه رجل طيب ...

– وابن حلال ياسيادة الوكيل ...

« الشيخ فهمى » ليس معمما ولا خريج معهد دينى وانما اطلق عليه لقب « الشيخ » لانه متشيخ فهو مثلا يحمل سبحة ويتمتم بالادعية

ويردد كلمات العبادة ويستدل على ما يقرؤه او يقوله غيره بآيات القرآن والاحاديث النبوية واقوال الائمة .. وبستطيع أن يأتى بالدليل على الشيء وضده على حسب الاحوال .. فمثلا اذا كان المطلوب استحسان أن يبقى الانسان شيئا من الطعام ولا يأكله كله ، كان الدليل « اذا اكلتم فافضلوا » واذا كان العكس .. قال : « الاناء يستغفر للاعقه »

وهو يحكى ما يراه فى المنام ويفسر الاحلام بطريقة لها قواعد واصول .. ولا يهتم فى ذلك بما درسه فى الجامعة من نظريات العقل الباطن والاحلام .

وزملاء الشيخ فهمى يحبونه او على الاقل يستريحون اليه ويستخفون ظله اذ يتسع صدره لمداعباتهم ولا يغضب أو لا يظهر عليه الغضب مما تنطوى عليه احيانا من سخرية وتعريض باساليبه فى التقرب الى الرؤساء .. يدرك مرامى زملائه فى ذلك ولكنه يتغاضى . وكثيرا ما يسألونه متخابثين عن اعمار الرؤساء وتاريخ ميلاد أولادهم .. وقد كان يعرفها لانه يحرص على المشاركة فى أعياد الميلاد وتقديم الهدايا .

وكذلك كان السيد أحمد سليمان « رئيس المستخدمين » يستريح الى الشيخ فهمى فهو من نوع الموظفين الذين يشعر الرئيس معهم انه رئيس بمعنى الكلمة .. الشيخ فهمى يؤمن بالحكمة التى يرددها المسالمون أمثاله . « قوله نعم تريح » .. فهو يقول نعم دائما عندما يطلب منه شيء ولكن التنفيذ شيء آخر ، اهم منه ارضاء الرئيس بطرق أخرى غير العمل المصلحى .

وكان رئيس المستخدمين يحب أن يستهلك كثيرا من البضاعة التى ينفقها أمام من هم اعلى منه كوكيل الوزارة .. وكان الشيخ فهمى يوفر له كثيرا منها .

أما الانصارى فكان على عكس ذلك .. كان أحمد سليمان يشعر كان الانصارى يتحداه تحديا صامتا باعتزازه بنفسه ، حقا ان الانصارى منتج ودقيق فى عمله . ولكنه يقلق رئيسه بشخصيته وكبريائه وكم يتمنى السيد أحمد أن تكون له هذه الشخصية على الا تكون سببا لتأخره فى الترقيات كما تسبب للأنصارى .. بل انه أحيانا يتمناها ولو ...

وقال وكيل الوزارة .

ـ ولكن الانصارى اقدم منه فى الدرجة الخامسة ...

ـ نعم ياسيادة الوكيل ...

ـ وبلغنى أن عنده مسئوليات عائلية ...

ـ « صاحب عيال » ياسيادة الوكيل ...

ـ وهو منتج ويستحق التقدير .

ـ وانتم ياسيادة الوكيل ... خير من يشجع العاملين ...

ـ ولكنه متكبر ... وما فائدة العمل من غير اخلاق ... ؟

ـ الأخلاق هى كل شيء ...

ـ الشيخ فهمى متواضع ...

ـ التواضع فضيلة ياسيادة الوكيل ...

وتذكر الوكيل عدة توصيات بشأن الشيخ فهمى منها توصية نسائية وقد زارتهم فى المنزل زوجة الشيخ فهمى واستظرفتها زوجة الوكيل ، زوجته على مثاله « الظريفون للظريفات » ..

قال وكيل الوزارة لرئيس المستخدمين بلهجة من يريد أن يتخلص من عبء ثقيل .

ـ يا أخى هذا الرجل دوشنى .. ويظهر انى لن اتخلص من الدوشة الا اذا اخذ الشيخ فهمى الدرجة ..

والله تكون راحة دماغ ياسيادة الوكيل ...

وسكت وكيل الوزارة قليلا ثم قال :

ـ أنا أذكر انى مرة كتبت (شكر) للأنصارى بشأن ما بذله فى انجاز التسويات المتأخرة .

ـ نعم ياسيادة الوكيل ...

وتذكر الوكيل تلك « التوصيات » مرة ثانية فقال كأنه يخاطب نفسه :

ـ لا شكر على واجب ..

ـ هو على كل حال يؤدى واجبه ...

ـ ولكن الشكر له وقع حسن ...

ـ نعم .. الشكر يشجع ...

ـ لم تقل ما رأيك فى هذه المسألة ؟

ـ كما ترى .. ياسيادة الوكيل ...

ـ الله يدوشك يا ...

وبهت رئيس المستخدمين .. هل وكيل الوزارة يشتمه ؟ لعله يريد ان يمازحه ولكن الدهشة زالت عندما اكمل الوكيل :

ـ ياشيخ زفت ...

ـ ....

ـ لم لم تقل رأيك ... ؟

وشعر رئيس المستخدمين ان وكيل الوزارة يريد أن تكون الدرجة للشيخ زفت .... وانه يريد منه أن يقترح ذلك .. وقال وهو يصطنع فى صوته نبرات الرجل العادل :

ـ الشيخ فهمى احق ياسيادة الوكيل .

ـ اعمل مذكرة ...

وخرج رئيس المستخدمين من مكتب وكيل الوزارة ليكتب مذكرة بمنح الشيخ فهمى الدرجة الرابعة بالاختيار . وكان الشيخ فهمى فى ذلك الوقت يقص على زملائه رؤيا قال انه رآها فى الليلة الماضية وهى تتلخص فى انه رأى نفسه فى المنام يصعد السلم ... واستيقظ وهو على الدرجة الرابعة من السلم .

وطاب للزملاء أن يفسروا له الحلم على طريقته .. بمقارنة درجات السلم بدرجات الوظيفة .. ولاحظ أحدهم اختلاف الاتجاه .. من حيث ان الصاعد فى السلم ينتقل من الدرجة الأولى الى الثانية .. الخ أما الصعود فى الوظائف فيكون بالعكس ... فسأله مداعبا :

ـ هل كنت تصعد أو كنت تنزل ؟

وقال آخر بلهجة ذات معنى :

ـ المهم هو الوصول .. سواء بالصعود أو بالهبوط ..

وقال ثالث وهو يضحك ..

ستترقى ياشيخ فهمى من فوق الى تحت ..


من علمني
حرفا

أنا الآن طالب فى جامعة القاهرة واسمى صالح ، واصلى من احدى قرى الاقليم الجنوبى فى الجمهورية العربية المتحدة . وانا كأى طالب ريفى يطلب العلم فى القاهرة – اقضي الاجازة الصيفية فى قريتى التى أحبها وأشتاق الى أهلى فيها واحب اشياء اخرى فيها واكره اشياء منها الشيخ حسين فقيه الكتاب وما تثيره رؤيتى له من ذكرى بغيضة فظيعة . وان اسعد يوم فى حياتى هو اليوم الذى خرجت فيه من كتابه والحقت بالمدرسة الابتدائية ..

عدت الى القرية فى بدء الاجازة كعادتى وذهبت كعادتى أيضا الى دكان خالى محمود الذى أحبه جدا ولا أنسي له أنه اقنع والدى بالحاقى بالمدرسة بعد ان كان هذا مصرا على بقائى فى الكتاب حتى أحفظ القرآن كله ولم أستطع حفظ شيء منه يذكر بسبب الشيخ حسين ذاته كما سأذكر لك وكدت أضيع « فلا أحصل بلح الشام ولا عنب اليمن » ، كما يقولون فى قريتنا عمن يتردد بين أمرين لاينال أحدهما ، والامران بالنسبة لى هما التعليم الدينى الذى كان يرغب لى فيه والدى ولم أوفق فيه والتعليم المدنى الذى نلته فعلا بفضل خالى محمود .

وجعلت اسلم على الواقفين امام الدكان وكان بعضهم يسلم على باشتياق وحرارة فيضغط على يدى ويهزها ثم يتركها ويضع يده على قلبه ثم يعود بها الى يدى ويستأنف الضغط والهز وهكذا مرارا . وهو يقول : « سلامات .. والله سلامات كده ... وحشتنا أوى » .. وأفعل مثله وأنا أشعر بأنى أزاول عملية كدت انساها فى القاهرة ...

وجلسنا أمام الدكان نتبادل التحيات والسلامات وفجأة ظهر الشيخ حسين يتحسس الطريق بعصاه ولم يكن كفيفا تماما بل كانت احدى عينيه تكشف له الاشباح بعض الشيء .. ويبرز أمامه كرشه ، وتنهدل حوله عباءته الكالحة ، وخيل الى أن عمامته وملابسه كانت أيام ان كنت صبيا فى كتابه أنظف مما هى الآن . لانه اغلق كتابه من زمن ، وانحصر مصدر رزقه فى قراءة القرآن بالمآتم وقراءة السورة فى بعض البيوت التى لا يزال أصحابها على هذه العادة ...

القى الشيخ السلام على الحاضرين ، وصافحه بعضهم وبادله البعض مداعبات وطلب واحد منه ان يكتب له حجابا .. وتكدرت لمرآه

ولكن كان لابد ان اسلم عليه ، وقد جرت العادة ان يقبل صبى الكتاب ولو كبر يد الفقيه الذى كان يعلمه ولكن لا .. لا يمكن ان افعل .. اننى الآن لا اقبل يد احد فكيف اقبل يدا قاتلة ...

لا لا ، ياخالى محمود انا افهم معنى نظرتك الى .. انت تعاتبنى على اننى سلمت على الشيخ حسين بفتور ورددت على كلامه باختصار لا اعتناء فيه . انت رجل طيب ياخالى محمود مثل هؤلاء المواطنين ، انتم طيبون لأنكم تعطفون على الشيخ الضرير حامل القرآن الكريم وتحترمونه، ولكنكم لا تعلمون ما اعلم .. ولم تروه كما رأيته .. رأيته يقتل الطفل .. طفل ابنته سكينة ..

انتم ياخالى محمود تعلمون شيئا ولكنكم تجهلون شيئا آخر . تعلمون مأساة البنت سكينة التى ورثت عن أبيها ضعف البصر القريب من العمى وكان لابد لمثلها أن تحفظ القرآن حتى تتكسب بقراءته واندمجت البنت مع الكبار من فتيان الكتاب حتى زرع احدهم فى بطنها جنينا ... وعرف الامر فى البلد بعد ان كبر بطنها وكانت فضيحة ووضعت سكينة طفلها واشيع انه نزل ميتا من اثر الاجهاض .
ذلك ما عرفتموه ياخالى ، وزادكم عطفا على الشيخ حسين ، وقلتم انه رجل صالح صبر على البلوى ورضي بقضاء الله وقدره وأمسك بابنته فى رعايته ولم يمسها بسوء ولو كان أحد غيره لقتلها أو أسلمها لمن يقتلها من اقاربه .

أما أنا فقد عرفت ما لم تعرفوه .. كان ذلك فى يوم من الايام الذى كان فيه نبأ الفضيحة قد ذاع وعرفه الجميع حتى نحن صبيان الكتاب . فى ذلك اليوم كان الشيخ متجهما مرتبكا حائرا ، يقوم من مكانه على الفروة المعدة لجلوسه على المصطبة ويدخل الى داخل الدار ثم يعود فيجلس مكانه ويستمع الينا ونحن نقرأ عليه ونسمعه ما حفظناه ، ونجوت انا فى هذه المرة من عصاه فقد جلست أمامه وتربعت وكان قد شغلنا الحديث السرى الهامس بشأن سكينة ومصيبتها وقد « استغرقتنا الدهشة والذهول » ، وهمس بعضنا بأسماء الاولاد الكبار الذين كانوا يرافقون سكينة الى حقل الذرة القريب ....

شغلنا ذلك فلم احفظ المقرر على من الآيات التى كتبتها على«اللوح» فلما جاء دورى وجلست أمام الشيخ « لأسمع » .. كان سرحا فى بلواه لا يعى ما أقول ورحت انا اقرأ عليه وتذكرت سكينة .. تذكرت ! . ابتسامتها الحلوة وانا أقرأ على ابيها من « اللوح » الذى اضعه بحيث

لايراه وكأنى اسمعه ما حفظته عن ظهر قلب .. ولا يكون هناك غيرنا اذ ينصرف الأولاد جميعا واتباطأ أنا بادعاء انى لم احفظ بعد . كانت تبتسم وانا اغش اباها وكنت استريح الى ابتسامتها ، وأتمنى لو كنت كبيرا فى سنها مثلا او فى سن الاولاد الكبار الذين اراها تضاحكهم بشكل يختلف ..

وتذكرت بلوى سكينة واختلطت على المشاعر ، هذه البنت اللطيفة التى كنت أتمنى أن اكون ولدا كبيرا معها ... لا ... الحمد لله على انى لم كن كبيرا .. لا ادرى هل اشفق عليها او أتقزز من فعلتها .. ياربى .. ماذا يكون مصيرها .. ؟ والطفل .. من ابوه ؟ لعله عبد الواحد عريف الكتاب .. سمعت فيما سمعت انهم سيرغمونه على زواجها والا فانهم يستدعون له « النيابة » « ويروح فى داهية » .

سيدنا الشيخ لا يعى ما يقول وانا جالس أمامه « لاسمعه اللوح » غير المحفوظ لانه سارح فيما كتب له ولابنته فى « اللوح » المحفوظ .. لست اليوم فى حاجة الى ان اضع اللوح فى الوضع المعتاد لاقرأ منه ، وسكينة ليست هنا اليوم .. فأين هى الآن ؟

كان الأولاد قد انصرفوا ولم يبق الا أنا ، وقمت من أمام سيدنا وشغلت بمسح اللوح واعداد الادوات ولم يلحظ وجودى ، فقام ودخل قبل أن أنصرف شعرت بالظمأ فاتجهت الى الزير القائم فى الفناء الذى يتوسط الكتاب وبقية المنزل ، ولكننى تسمرت فى مكانى عندما رأيت الشيخ يحمل بيديه طفلا ويضعه فى الزير ...

لست فى حاجة لان أقول لك اننى لم اشرب من هذا الزير بعد ذلك وكيف اشرب منه ؟ وهل يمكن ان يتطهر ؟ .

آه ، ياخالى محمود ... لو تعلم ما نظرت الى هكذا وانا أشيح بنظرى عن الشيخ حسين واسلم عليه بفتور كأنى لا أعرفه ... لو تعلم انه اغرق الطفل فى ماء الزير ... ثم أدعى أنه نزل ميتا ...

لم اقل لاحد ، ربما لانه أمر فظيع عقد لسانى حتى الآن وربما كتمته اشفاقا على سيدنا ويكفيه ما هو فيه ، حتى بعد ان قست على عصاه ونالت من جسدى الصغير وخاصة يوم ان ارتطمت يده باللوح فى يدى وعرف انى اقرأ منه .. ولم أستطيع بعد ذلك ان اعود الى هذه الطريقة وقد انكشفت ، ولا ان « أسمع » عن ظهر قلب .. فقد كنت ضعيف الحفظ من الاصل وصرت الآن اضعف حتى لو حفظت شيئا فان منظر

الشيخ وهو يحمل الطفل ويضعه فى الزير كان يتصور لى عندما اجلس امامه للتسميع فيطير من راسي كل ما حفظت ..

وشاع عنى انى بليد وكاد ابى ييئس منى وكان يقول : لا ، « انت مش نافع » .. الاحسن انك تسرح بجاموسة ؟

ولا أجدنى فى حاجة لان أذكر أنى قد نجحت فى المدارس بل تفوقت فى الامتحانات ولم يعقنى ضعف الحفظ الذى لازمنى بعد ذلك ولولا مجانية التفوق التى حصلت عليها ولا ازال اتمتع بها فى الكلية ما استطاع ابى ان يستمر فى الانفاق على ..

ولما صافحت الشيخ « حسين » ولم أقبل يده واحس برودة يدى وفتور تحيتى قال وهو يشيح بيمناه كأنه يدفع شيئا مكروها :

ـــ انت ياصالح .. نفسك كبرت ... اليس كذلك ؟

فقال محمد ابن عمى .. وهو كسائر اهل بلدنا يعتبر « السلامات» شيئا مهما جدا

ـــ لا ياسيدنا ، دا صالح افندى نفسه حلوه جدا ... انه لايترك اى طفل صغير فى الطريق الا يسلم عليه ..

ولكن الذى ضايقنى حقا هو أن خالى «محمود» قال لى بعد انصراف الشيخ حسين :

ـــ ياصالح يا ابنى .. من علمنى حرفا صرت له عبدا ...

آه ياخالى .. اذا أخبرتك بحكاية الشيخ والطفل والزير ؟ فلتقل عنى ما تشاء وليقل الشيخ حسين أنى متكبر ، ولا بأس أن تعطف عليه وتحرص على أن يقرأ السورة فى الدكان صباحا وتوقف اذاعة الراديو ..

وفى المساء كنا فى منزلنا بالمندرة وجاء الشيخ عبد الواحد ـــ فقد صار من فقهاء القرية ـــ فيمن جاءوا يسلمون على ، وكان أبى يستقبلهم معى مسرورا ومعتزا بى . وهمس محمد ابن عمى فى اذنى وهو يشير بطرف عينه الى الشيخ عبد الواحد : « جوز سكينة » فنظرت له بجد واعراض عن مبادلته السخرية وكأنى اقول له : انا عارف أنه تزوجها ، وليس فى الامر ما يدعو الى السخرية وكدت اقول له : انك يا ابن عمى تافه ... لولا اننا فى حرارة اللقاء بعد مدة طويلة .. وكان عبد الواحد

قد تزوج سكينة بمحض اختياره بعد ان سكنت الزوبعة وكاد الناس ينسون ولابد انه فعل بدافع حبه لها ، ويقال انه لم يدفع الا مهـــرا رمزيا ...

اقترح بعض الحاضرين على الشـــيخ عبد الواحد أن يسـمعنا ما تيسر من القرآن الكريم فاستجاب ، واخذ يتلو ويجود بصوت وقع فى أذنى موقعا حسنا واحسست بمشاعر طيبة نحوه وتمنيت لو يصبح من مقرئى الاذاعة ...

وفى فترة الهدوء والصمت التى سادت فى أثناء قراءة القـرآن راحت خواطرى تتابع منحصرة فى الشيخ عبد الواحد وسكينة ... وتذكرت قول خالى محمود « من علمنى حرفا صرت له عبدا » وعادت الى ذاكرتى صور قديمة أيام كنا فى الكتاب وكان عبد الواحد «العريف» يقول لنا فى صوت عال منغم لكى نردد وراءه :

« الالف لا شيء عليها والبيه (الباء) واحدة من تحتيهـــا .. الخ .. »

اذن لقد علمنى عبد الواحد الحروف كلها .. اتســمح ياخالى محمود ؟ هذا هو الذى علمنى ... لو صار من مقرئى الاذاعة واقام بالقاهرة ومعه سكينة فانه يبعد عن هؤلاء الناس الذين لا يدعون الناس فى حالهم ...

ولما فرغ الشيخ عبد الواحد من التلاوة قلت له باحترام وتقدير :

« أحسنت ياشيخ عبد الواحد » .

وعند الانصراف شددت على يده بحرارة ومودة وقلت : مع السلامة ياشيخ عبد الواحد ، متشكر جدا ... وكأنى اشـكره على انه تزوج سكينة .

الشاطىء
الخالى



كان الأصحاب يتحدثون عن الروتين الحكومى ، وقد حكى كل منهم حكاية أو اكثر من حكاياته العجيبة ، وكان أحدهم صامتا يستمع الى بقية اصحابه دون أن يتكلم . انه رجل نحيل هادىء يتعبه الكلام فى زحمة المتكلمين ، فكان يكتفى بالاصغاء ، وأحيانا يعلق بنكتة خاطفة . وفرغ الاصحاب من كل ماعندهم ، لم يبق الا الرجل النحيل الصامت . وعندما احس بهدوء الصمت تفتحت رغبته للكلام ، فقال فى صوت خفيض متمهل يشبه قيام القطار من المحطة شيئا فشيئا ليسترسل فى سير طويل :

فى صيف سنة ١٩٥١ عزمت على أن أقضي اجازتى فى مصيف بلطيم ، وكنت فى حالة ضعف شديد من جراء الارهاق فى عمل اضافى ، فقد كنت موظفا حكوميا ، وكان على أن أعمل شيئا آخر لكى أوفر لنفسي ولعائلتى مستوى المعيشة الذى تطمح اليه .

وكان قد هبط على مبلغ من المال عن طريق وراثة .. فبدأت بعلاج نفسي عند طبيب مشهور ونفذت ما طلبه من تحليلات ، وصرفت الروشتات .. وكلفنى ذلك مبلغا من الثروة الجديدة التى نويت البحبحة بها . ولكنى لم اشعر بفائدة هذا العلاج غير ارهاقى بوخز ابر الحقن وبلع الاقراص وشرب ملاعق الشاى وملاعق الشوربة من هذا الدواء أو ذاك قبل الاكل وبعده ، والاستيقاظ مع الفزع من جرس المنبه — فى الليل لآخذ الدواء فى ميعاده .. حتى زادنى ارهاقا على ارهاق .

وسافرنا الى بلطيم ونزلنا بعثة فى مصيفها الهادىء المنعزل .

وأخذت الاجازة تمضي حتى اقتربت من نهايتها ، والواقع أننى على رغم الهدوء والراحة ومتعة البحر وهدوئه المنعش لم أشعر بالصحة التامة كما ينبغى ، فقد كان الارهاق قد استنفد منى أكثر مما يعوضه شهر واحد على هذا الشاطىء الذى أحس أن جسمى يتشبث برماله وأن جراحه لم تنته بعد من الافضاء بكل شكواها الى الرمل ..

وخطرت لى فكرة مد الاجازة الاعتيادية باجازة مرضية ، فكتبت الى رئيس المصلحة فى نهاية الاجازة الاولى — باننى مريض وطلبت الاحالة الى الطبيب لتقدير مايلزمنى من الراحة ، كنص العبارة المحفوظة فى الدواوين ، والتى تشير انه ليس من اختصاص الطبيب النظر فى

الم الانسان الذى يكشف عليه ، فلا شأن له بمرضه من حيث العلاج ، ولا يهتم به كما تهتم جمعية الرفق بالحيوان بمرضاها .. مثلا .

وهذه هى بداية القصة التى أريد ان اقصها عليكم ..

بدأت القصة على ظهر حمار من الحمير الاميرية .. وهو حمار ساعى البريد الذى اخذ خطابى فى جملة الرسائل من مكتب البريد فى المصيف ، الى مدينة بلطيم وقد وصل الى بلطيم بعد ثلاثة أيام من تسجيله فى مكتب الارسال ، وانتقل الخطاب من بلطيم البلد الى قطار الدلتا الذى حمله الى المحلة الكبرى فى يومين آخرين ، ولكن القطار الكبير حمل الخطاب من المحلة الى القاهرة فى اليوم نفسه .

واخيرا .. بل وأولا .. وصل الخطاب الى أرشيف الوزارة . وزارة المعارف ثم ارسل بعد يومين الى الادارة التى أنا موظف بها ، فأحالته الى وحدات وزارة المعارف العمومية بشارع عبد العزيز ، لاجراء اللازم . ورأت الوحدات أن اللازم « هو أن ترسل الخطاب الى الوحدة العلاجية بمنطقة غرب الدلتا التعليمية ، ولكن هذه المنطقة أشرت على الخطاب بأن بلطيم ليست تابعة لها لانها فى منطقة وسط الدلتا .. وعاد الخطاب الى وحدات القاهرة التى راجعت خريطة الوجه البحرى حتى تحققت موقع بلطيم ، ثم ارسلت الورق — صار ورقا لكثرة التأشيرات والامضاءات والتواريخ وعدم اتساع الخطاب الاصلى لها — الى منطقة وسط الدلتا التعليمية ولكن المعلومات الجغرافية لم تكن كافية وحدها فى هذا الموضوع ، لان بلطيم .. أى نعم فى وسط الدلتا ولكن ليس بها طبيب من الوحدات العلاجية التابعة لوزارة المعارف العمومية .. وعلى هذا عاد الورق الى الجهة المرسل منها .. وهى الوحدات العلاجية المركزية بالقاهرة ، وهذه اعادته — بعد الطواف بأنحاء الدلتا — الى ديوان الوزارة للتصرف .. ثم ارسلت وزارة المعارف العمومية « الورق » الى وزارة الصحة العمومية ، كى ترسله الى طبيب مركز بلطيم التابع لها ، كى يوقع الكشف الطبى على « حضرته » الذى هو أنا .. وكان لابد للورق ان يسلك — من القاهرة الى بلطيم — الطريق الذى سلكه الخطاب الاصلى من بلطيم الى القاهرة ..

ومضى اربعون يوما قبل ان يأتى الورق الى طبيب الصحة بالمصيف كنت خلالها قد ضقت ذرعا ببلطيم وبهدوئها .. كنت أبحث هناك عن ناس .. عن حياة .. فلا أجد الا الشاطىء والبحر والرمال والافق .

المصطافون هناك عائلات يلتقى نساؤها وحدهن .. فى البحر بعيدا عن الرجال وفى العشـــة بالجانب المخصص للحريم . أما الرجال فزوج الست انصاف مثلا لابد ان يزور الاستاذ عبد الكريم زوج صديقة انصاف، التى تعرفت بها فى البحر فى الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر ، بعد ان تناول الرجال الغذاء وناموا .

ويجلس المتزاورون فى المساء بالعشة على ضوء المصباح البترولى أو المصباح الكهربى الذى شق طريقه الى هناك لاهثا يكاد يلفظ الشعاع الاخير . ويقول أحدهم : سلامات .. ويرد الآخر .. أشرقت الانوار .. وما تأتى الساعة الثامنة مساء حتى ينتشر التثاؤب وينام المصـــــيف الهادىء .

على أننى كنت الحظ فى المصيف « مجتمعا خلفيا » يجـــرى فيه الاختلاط بين الجنسين خلف العشش .. لايتكون من شبان وفتيات من أبناء وبنات المصيفين بل يجتمع فيه شـــــبان وفتيات من نوع آخر .. الخدم ..

كنت اجلس مرة بجانب العشة وسمعت خادما وخادمة يتحـــدثان خلف العشة المجاورة وكل منهما لايرانى..كان الحديث يدور على السخط والشكوى من معاملة المخدومين ، ويتخلله بعض العواطف .. شـــــكت الفتاة ــ مثلا ــ من تكليفها احضار الماء بالصفيحة من المكان البعيد الذى يحضرونه منه الى العشش ، وأن مخدوميها لايهون عليهم أن يشتروه من السقايين كما يكلفونها أخذ الحلل والاطباق الى البحر وغسلها هناك بالماء المالح . وتردف ذلك قائلة :

ــ ياريت عاجبة . لا .. كمان الشخط والامارة ..

ــ معلهش ياعزيزة بكره تتعدل .. انا حاشيل عنك الصفيحة فى السكة ولما نبقى نقترب من العشش اعطيها لك .

وعرفت فى تلك الفترة نعمة الكلام مع انسان مماثل فى التفكير والنظر الى الحياة عرفت فضل هذه النعمة ، لانى محروم منها هناك ، فلم أجـــد من يتجاوب فكره مع فكرى .. وعرفت كذلك نعمة الزحــــام والمجتمع الصاخب ، فاشتقت الى القاهرة ، واشتقت حتى الى الركوب فى الدرجة الثانية بالترام ..

شعرت بالشوق الى المجتمع والناس والمتاعب .. كنت أقف على الشاطىء الخالى وأبحث عن الانسان .. ليس « الكامل » الذى كان يبحث

منه الفيلسوف « ديوجين » بمصباحه .. بل الانسان الذى هو « يميله » .. الذى أعانى من أخطائه ويعانى من اخطائى .. واعجب بفضائله ويعجب بما يرى فى من فضائل . ويزاحمنى وأزاحمه .. وبالاختصار .. الذى ازاول معه الحياة .

وفى اثناء ذلك احسست ببعض الآلام ، فقصدت الى طبيب الصحة الذى لايوجد غيره بالمصيف للعلاج ، وقلت له فى احدى المرات اننى طلبت أجازة مرضية ، ولم يأتنى خبر عنها الى الآن ، فأجابنى .

ــ انتظر حتى يأتينا أمر .

ــ وهل يجب أن أبقى مريضا حتى يأتى ؟

ــ لابأس .. فأنا قد رأيتك وعرفت مابك .

وفى العاشر من شهر سبتمبر ــ وكانت أجازتى قد انتهت فى آخر يوليه ــ كنت جالسا امام العشة أفكر فى انهاء هذه الحالة بالسفر ، وكان الموج يعلو ويصطخب والرياح الباردة تهب وتنذر ، كأنها صفارة عسكرى بلدية بحديقة عامة يطلقها قبيل الغروب للحث على الخروج .. وجاء ساعى مكتب الصحة ، وقال لى :

ــ حضرتك طالب أجازة ؟

فأحسست احساس من كان قد ضاع منه شيء ويئس منه .. ثم جاءه من يخبره عنه .. ولكنى قلت فى لهجة هادئة :

ــ نعم .

ــ اتفضل عند الدكتور ..

ثم أردف بعد أن فحصنى بنظرة ورآنى فى صحة وعافية :

ــ الدكتور راجل طيب ومتساهل .. وضحك ضحكة طيبة ..

وفى مكتب الصحة رأيت خطابى ، وما أرفق به من ورق .. وعرفت، مما عليه وعلى الورق من تأشيرات قصة الرحلة الطويلة التى قطعها ذهابا وايابا بين بلطيم والقاهرة ومنطقة غرب الدلتا ، ومنطقة وسط الدلتا ..

ثم عدت من بلطيم الى ... الحياة .


محنة الفيلسوف

يحكى انه كان فى قديم الزمان فيلسوف زاهد فى الدنيا ، عازف عن الناس لما يرى فى نفوسهم من نزوع الى الفساد والشر ، معرض عن مشاركتهم فى شئون هذه الحياة لانه يراها عبثا فى عبث ، اسمه دوزا .

وكان الملك الذى يعيش فى زمنه قد ضاق ذرعا بالقضـــــاة الذين يوليهم ويكل اليهم الفصل فى المنازعات والخصومات فيحيدون عن طريق العدل اذ تغريهم منافع الدنيا ولذاتها فينحازون الى من يوفرونها لهــم ويحكمون لمصلحتهم .

وقال الملك لوزيره :

ــ دبرنى ياوزير .

ــ التدابير لله ياملك .

ــ مارأيك فيمن يصلح للقضاء ؟

ــ الرأى لك يا ملك الزمان ، ولكنى اقترح دوزا .

ــ دوزا ؟ على بدوزا .

وجاء الفيلسوف دوزا ، وادخل على الملك ، وقال له هذا بعد أن رحب به وأجلسه :

ــ قد رأينا أن نوليك القضاء .

أطرق الفيلسوف برهة ثم قال له :

ــ أرجو أن تعفينى من هذا الأمر يامولاى ، فأنا لا أصلح له .

والح الملك على الفيلسوف ، ولكن هذا أصر على الرفض . فكبر على الملك الا يطاع أمره ، فأمر بسجن دوزا ، وهدده بأنه سيظل فى السجن ولن يخرج منه الا اذا قبل القضاء .

ودخل الفيلسوف السجن ، ولم يجزع اذ وجد نفسه وحيدا بين اربعة جدران ، بل اقبلت عليه افكاره وتأملاته تؤنسه وتمتعه ، ولم يطرا عليه فى سجنه حرمان جديد من لذات العيش وطيبات الحياة فقد اخــذ نفسه بالحرمان وتعوده ، بل هو لا يعده حرمانا ، وما دامت لذة التفكير

متوافرة له فهو قانع سعيد ، او على الأقل يشعر بالراحة والاطمئنان .

ولذلك كان جوابه الرفض فى كل مرة يرسل فيها الملك اليه رسولا يسأله : هل يقبل ان يتولى القضاء ؟ .

وحار الملك فى أمره وجعل يفكر فى وسيلة اخرى تحمله على أن يقبل . وبينما الملك كذلك اذ استأذن عليه شاعر لا يستخف ظله ؛ وطالما صدعه بقصائد المدح وبكثير من الهذر وبالعبارات التى تجمع بين الملق والغرور ، وقد مل سماع هذا المعنى المكرر منه والذى يصف فيه الملك بأنه سيد الدنيا الذى يخضع له كل شيء حتى الحيتان فى البحار ..ويصف نفسه بأنه اشعر الشعراء الذى يردد شعره الانس والجن !

وبدلا من أن يأذن الملك للشاعر بالدخول اليه صاح وهو يشعر بالملل والغضب : خذوه الى السجن !

وجر الحراس الشاعر الى السجن وهو يلعن هذه الدنيا التى لايجد فيها تقديرا ، بل على العكس يجد بدل التقدير اضطهادا وتعذيبا .

وأدخلوه الحجرة التى فيها الفيلسوف دوزا ، وقد بادره الشاعر بقوله :

ـــ تصور ياسيدى أن يكون جزائى السجن على روائع الشعر التى امدح بها الملك .

فقال دوزا :

ـــ لقد عاقبك الملك على مدحك وشعرك فيه ولكنى لم أسىء اليه ومع هذا أمر بسجنى ..

نظر الشاعر الى الفيلسوف وقد استرعى انتباهه لهجته المتأنية العميقة ونكتته المداعبة اللاذعة .. فتغاضى عما ترمى اليه النكتة من أن شعره يستحق العقاب وقال معبرا عن سروره بلقاء الفيلسوف :

ـــ الفيلسوف دوزا .. ؟ يالها من مصادفة عجيبة ! لقد سمعت بسجنك ولكنى لم أتوقع أن القاك هنا .. اذا كان لبعض المصائب فوائد فهذه فائدة بلواى بهذا السجن . فرصة سعيدة يا أستاذ ..

فسكت دوزا وهو يقول فى نفسه : وهذا هو النقص الوحيد فى هذا السجن .

وقال الشاعر :

ــ الا تعرفنى يا استاذ دوزا ؟ انى مشهور والناس يتناقلون شعرى وقد مدحت الملك بقصائد كثيرة .. « خسارة فيه » .. فانه منكر للجميل ولا ادرى لماذا رمانى فى السجن ؟ لعل احدا من منافسي الشعراء دس لى وشاية عنده ، انهم ياسيد دوزا يحسدونى لقربى منه ونظرى بمنحه وجوائزه .

ــ أغلب الظن انك ستقول فيه قصيدة تسترضيه بها وتعتذر عما لم يقع منك !

تغاضى الشاعر مرة ثانية عن سخرية الفيلسوف ، وكان فعلا يفكر فى نظم قصيدة يستعطف بها الملك ويطلب فيها العفو .. وأخرج من جيبه ورقة طويلة مطوية وبسطها وشرع يلقى مافيها على دوزا ودوزا يتململ صابرا .. فلما لمح ضيق الفيلسوف طوى الورقة وأخرج من جيبه أوراقا اخرى وقدمها له قائلا :

ــ هذه بعض اشعارى ارجو ان تقراها وستجد فيها مايعجبك .. وسيكون اشعر الشعراء « يقصد نفسه » سعيدا باعجاب أعظم الفلاسفة ..

ــ اعظم الفلاسفة .. واشعر الشعراء .. ؟ انك ياسيدى تفيض بالالقاب بغير حساب .. فأنا لست اعظم الفلاسفة ، أما انك اشعر الشعراء فاترك هذه للناس ليقولوها ..

ــ والله لقد تركتها لهم ثلاثين سنة فلم يقلها أحد ..

ثم استطرد الشاعر وهو يقهقه :

ــ وحتى زوجتى .. لعنة الله عليها .. انها لاتعرف قيمة شعرى ولا تقدر موهبتى سأحكى لك حكاية وقعت لى معها . مات صديقنا الشاعر « أبو المكارم » لابد أنك تعرفه أو تسمع عنه .. واراد الشعراء ان يقيموا له حفلة تأبين وشغلت باعداد قصيدتى فى هذا التأبين ،وكعادتى كنت اجلس مع زوجتى وكأنى لست جالسا معها .. اذا حدثتنى فلا أرد عليها الا بألفاظ مثل نعم ، حسن .. الخ وحدث مرة .. وهذه نادرة اخرى .. ان كانت تكلمنى فقلت لها : حسن . فقالت غاضبة : حسن ! اقول لك يارجل أن أمى مريضة وفى حالة خطرة فتقول حسن ! وقهقه الشاعر ثم استأنف كلامه :

ــ وأعود الى حكاية التأبين والقصيدة التى كنت مشغولا بها ..

راتنى زوجتى قلقا أروح واجىء فى المنزل ونظراتى تائهة لاتستقر على شيء ، فقالت لى : مالك هكذا ؟ فأخبرتها انى أنظم قصيدة فى رثاء أبى المكارم ، فقالت طيب ، وبدلا من هذا التعب ووجع القلب .. « اطلع عليه بسبت فاكهة » ..

واخذته نوبة من الضحك المتصل .. ولما انتهت نوبة الضحك قال الشاعر الفيلسوف :

ــ الم تسمع عن تلك الحفلة ؟ لقد تناقل الناس أخبارها ، وكان اكثر الحديث واطيب الثناء على قصيدتى ..

على حين راح الفيلسوف يتأمله وهو يفكر ويقــول فى نفســه : هذا الرجل يشغل نفسه ازاء وفاة صــــديقه باستعراض ماينظم ليظهر براعته . وكأن التأبين لعبة « كرة » . أو سباق فى العدو .. لايهمه منه الا أن يكون الفائز السابق .. ولا يعنيه أن يقول . شيئا ينفع الناس بمقدار مايعنيه أن يذاع اسمه وصيته بينهم .

ثم التفت الفيلسوف دوزا الى نفسه .. ماذا قدم هو للناس ؟ ولماذا يعرض عنهم ويزهد فى معايشتهم ؟ اليست هذه أنانية منه .. اليس رفضه لمنصب القاضي لأنه يريد ان يجنب نفسه المتاعب والخطايا ويحفظ صفاء نفسه بعيدا عن المكدرات والمغريات ــ اليس هذا أنانية .. تشبه انانية المتكالبين على المناصب للحصول على مكاسب شخصــية ؟ اليس هناك وسط بين الطرفين ؟ اليست الفضيلة وسطا بين رذيلتين ؟ .

وصحا الفيلسوف من تأملاته على صوت الشاعر وهو يشرع فى انشاد قصيدته فى رثاء أبى المكارم .. وقد علا صوته وهو يترنم فى زهو سيىء الوقع فى الآذان .. فقد استطرد من حكاية حفلة التأبين الى الشروع فى القاء القصيدة ودوزا سارح مع افكاره .. وقال الشــاعر اول بيت واعاده .. ثم قال لدوزا :

ــ مارايك فى هذا المطلع ؟ لقد اســــتعاده الحاضرون فى الحفلة واكفهم تكاد تدمى من التصفيق ؟

ــ هل القصيدة طويلة .. ؟

ـــ مائة بيت .. سأسمعك اياها لتقول رأيك فى القصيدة لانى اعتز بك وبرأيك يا أستاذ دوزا ..

وارتجف دوزا وقال فى نفسه : مائة بيت من هذا الهراء اسمعها .. وليس هذا فقط بل أبدى رأيى !

واستمهل دوزا الشاعر قليلا وهو يتجه الى الباب ودقه بعنف .. فلما فتح له الحارس صاح به :

ـــ أبلغ الملك انى قبلت القضـــاء .. أسرع من فضـــلك قبل ان يحم القضاء !

العين



وصفت لى الست ام بسيمة ثلاث طرق لعلاج المريض الذى اصابته عين الحاسد .. ذكرت طريقتين ثم وصفت الثالثة فقالت :

« والتالته تابتة » .. ودى عاوزه جراة وشوية ضحك وهزار .. حصلت ويايه لما بسيمة جاءت وقعدت معانا ، وكان وجهها احمر وخدودها زى الورد نظرت اليها الوليه ام حسين وقالت : ايه الحلاوه دى كلها يابسبوسة .. فى تانى يوم البنت سخنت وصار وشها اصفر .. تقول هو انت صابفه بكركم . حاكم الوليه دى نظرتها وحشه .. نهايته .. احضرت شوية كزبره وقعدنا كده ، وكان فيه ستات تانيين وقلت لهم وام حسين فيهم : بقى اسمعوا لما اقول لكم ، الحق مافيهش اختشا .. بسيمه عيانه من أول امبارح بعد ماكانت قاعده معانا . كل واحده تاخد شوية كزبره من دى وتمضغها وتطلعها تانى .. ولميت الكزبره اللى مضغوها وخدت بالى كويس من بتوع ام حسين . ورقيت البنت وغطيتها ولفيتها باللحاف كويس . نامت وعرقت ، وبعدين قامت ولا كأن كان فيها حاجه ..

وكان ذلك اجابة لطلبى منها أن تصف لى علاجا لابن صديق لى مريض يعتقد ابوه ان « العين » قد أصابته .

وكنت قد حملت هم صديقى محمود الذى تحالفت ضده الكوارث وهى اشياء محتملة ولكنه يصر على انها كوارث .. وكلما سألته عن الحال قال : الحمد لله على كل حال ، ويتبع ذلك بالتحدث عما أصابه او أصاب احد افراد اسرته من حادث او مرض ، وما كابده من خسائر مالية بسبب الحادث او بالعلاج عند الاطباء ، فى المستشفيات والصيدليات .. ويردف قائلا : ربنا يستر ..

وليس حتما ان يكون كل مايقوله صحيحا ، فهو يضخم الصغير ، وقد يختلق الصغير اذا لم يكن شيء ..

والحق ان صديقى لايقصد الشكوى ، وانما هو يعتقد أن الناس لاتترك الواحد على حاله .. وان « العين » لها نفوذ كبير ..

فاذا أثنى احد على صحته او اشاد ببراعة الترزى الذى فصل له البدلة او ابدى ملاحظته على الانسجام بين الوان البدلة والقميص

والكرافته ، أو بجمال ربطة الكرافته فى اللياقة « الفان هاوزن » — اذا نزل على سمعه شيء من ذلك امتعض وتململ ، لانه يتوقع أن يحدث له عقب ذلك أى مكروه .. ويتمتم بكلمات يختمها بقوله : ربنا يستر .

والاستاذ محمود شاب عصرى من خريجى الجامعة ، انجب منذ سنتين ولده أسامة الذى هو الآن مريض ، والذى تحدثت بشأنه مع الست أم بسيمة ، ولما كنت أعرف بالتجربة ان المناقشة مع صديقى فى مسألة الحسد لاجدوى لها ، اردت ان اجاريه فيما يرى ، فالتمست له العلاج المناسب لاعتقاده عند اهل الاختصاص أمثال الست أم بسيمة ، لعل مجرد الوهم يطمئن نفسه ، فلا يجنى على ابنه ويربك نفسه بالتردد به على عدد من الاطباء فى وقت واحد ، كما يفعل عادة لاضطرابه وشدة جزعه ، وكل منهم يبدى رأيا ويعطى دواء يخالف مايبديه ويعطيه الآخر .

وأنا لم اقتنع طبعا ولا بواحدة من الوصفات الثلاث التى جربت أم بسيمة الثالثة منها ، وكل ما فى الأمر بالنسبة للبنت بسيمة انه كان عندها برد شفيت منه بعد ثلاثة ايام مع التدفئة .

والعجيب أننى لما عرضت هذا العلاج على صديقى محمود قال بعدم اهتمام :

خليها على الله .. ربنا يستر .

— ألم تقل أن الولد محسود .. ؟

— بلى أصابته عين ..

— فهذا هو دواء الحسد ..

— هذا كلام فارغ ..

ودهشت أولا من هذا الذى يبدو وكأنه تناقض . كيف يعتقد أثر الحسد وفى الوقت نفسه يرفض الدواء الذى يستعمله من يشاركونه فى هذا الاعتقاد .

ثم اقتنعت بأنه كرجل عصرى متعلم لاينبغى له أن يأخذ بتلك الاشياء ولا يليق به الا ان يعمل بالعلم والطب الحديث ، وكل مافى الأمر بالنسبة لاعتقاده فى الحسد وعين الحسود انه اثر من البيئة لم يستطع أن يتخلص منه ، وبقى الاعتقاد فى نفسه منعزلا عن الأشياء التى تتبعه وتتصل به .

والاستاذ محمود عاطفى جدا بشكل نلحظه واضحا فى عنايته بابنه

الوحيد وجزعه من أى شيء يصيبه ولا سيما ان زوجته لن تنجب غيره كما قال الطبيب بسبب ماحدث لها فى ولادته العسرة وهو فى أعماق نفسه مطمئن لذلك ، فهو لا يريد أولادا كثيرين وقد حاول منع الحمل من قبل ، وكان نبأ حمل زوجته بأسـامة مزعجا . انه لايزال فى الدرجـة السادسة . وأجر الشقه اكثر من نصف المرتب ، وزوجته لاتعمل ، وحتى لو كانت تعمل فان الأولاد سيحتاجون الى مربية : مشاكل .. « ومع ذلك الناس مش عاوزين يسيبونا فى حالنا .. بيحسدونا كمان على حتة الولد .. ربنا يستر . »

والواقع انى كثيرا ماكنت اتساءل : لماذا نرى الأستاذ «محمود» دون غيره تنصب عليه الحوادث المتتالية التى ينسبها الى « العين » ؟ فقد لبس بدلة جديدة وخرج بها مرة واحدة ، وعندما عاد الى البيت لم يدر من اى مصدر جاء هذا «الزفت» الذى لم تنفع فى ازالته وصفة من الوصفات .. « راحت البدلة » .

والبنت الخدامة التى طالما بحث عنها وأوصى عليها فى « البلد » .. ماكادوا يفرحون بها وبخاصة من أجل الولد الذى يبكى كثيرا ويريد أن يحمل — حتى ظهر انها « قرعة .. » ولابد أن تعدى الولد .. وعلاجها يستلزم تكاليف جديدة ومتاعب ، لأنه قراع انجليزى .. يذهب ويعود ان لم تكن له بالمرصاد .. فأعاد البنت الى اهلها .

وأخيرا مرض اسامة .. فى الاسبوع نفسه ..

والحقن التى كتبها له الدكتور لعلاج الضعف العام وارهـاق الاعصاب .. ماكاد يأخذها حتى أصيب جسـمه بالهرش وانتشر على سطحه طفح « الارتيكاريا » .

وهو يبحث وراء كل حادث عن العين التى أصابته .

وكنت أتساءل كذلك : هل هناك حقا علاقة بين مايصـيبه وبين العين .. ؟

حتى شهدت « ميلاد » آخر حادث وقع له فأيقنت أن تلك العلاقة مفقودة ، وعرفت نوعا من أسباب تلك الحوادث . وبناء عليه ، أى على ماشاهدته فى الحادث الاخير نستطيع أن نقول بأن الحوادث التى تتوالى على صاحبنا اكثرها عن الخوف من « العين » لا عن « العين » المفترى عليها ، وبعضها عادى مما يقع لمختلف الناس ، وكثيرا مايتخلص الناس من تبعة فشلهم وسوء تصرفهم ويلصقون مايصيبهم من ذلك بأشياء كالقدر

والقسمة والنصيب والحسد واضطهاد الآخرين ... وما الى ذلك .

وهذا هو الحادث الأخير ..

كان الاستاذ محمود قد اشترى راديو صغيرا على « قد الحال » ، وبطبيعة الحال نفسها اشتراه بالتقسيط . وهو يستريح الى ولا يخاف « عينى » لانى اتجنب مايثير خوفه من الحسد .... فأسامة مثلا ولد « وحش » فى نظرى ، وبينه وبين الصحة عداء تقليدى .. وأقصى ماينالله من اطرائى انه « ابن كلب » ..

لذلك اطمأن صديقى الى عندما جلسنا نستمع الى الراديو الجديد، وجعل يغير موجاته المختلفة التى تعمل عليها برغم صغره .. ثم دخل رجل من جيرانه ، ولاحظت تغير محمود المفاجىء وتجهمه لمجىء الرجل ، وتمالك نفسه وقال : اتفضل ياسي فوزى ، ومال جهتى هامسا فى قلق : آهو ده عينه متقعش الأرض .. ربنا يستر .

السيد فوزى ليس له الا عين واحدة ، ولعل هذا مما جعل «محمود» يتشاءم فهو متشائم ايضا ، والتشاؤم وتوقع الحسد وسوء الحظ وما الى ذلك .. كلها أمور يجر بعضها بعضا .

لم تقع العين الواحدة — عين السيد فوزى على الأرض ، ولماذا تقع على الارض ؟ بل وقعت على الراديو ، وماذا فى أن تقع على الراديو ؟ الجواب عندالسيد محمود : ربنا يستر ..

وتكلم فوزى عن الراديو وهو ينظر اليه ، وأثنى على صوته الرايق، وعدم وجود « خرخشـــــة فيه » .. فاضطرب محمود وأحس باقتراب الكارثة التى يتوقعها .. وبحركة آلية اقفل الراديو .

ولما شعر بالثقل الذى خيم على الجو من اقفال الراديو اراد فتحه فأدار المفتاح وهو لايزال مضطربا برغم مايحاول من التظـــاهر بالهدوء والمرح ، أدار مفتاح الراديو فى عكس الجهة التى يفتح عليها ، ولما تعذر فى يده ضغط عليه بقوة .. فكسر المفتاح ، ولم ينطق الراديو ..

وسجل حادث جديد فى ســـــجل النحس الذى يلاحق الصـــديق المسكين ..

الخضرا



كان بنو هلال فى طريقهم من نجد الى تونس حينما نزلوا ضيوفا على حاكم الصعيد « الماضي بن مقرب » وقد استقبلهم بالترحيب والاحترام واكرمهم غاية الاكرام .

وكان على راس بنى هلال اميرهم حسن بن سرحان وفرسانهم المشاهير أبو زيد الهلالى ودياب بن غانم والقاضي بدير بن فايد .

وضربت القبيلة خيامها فى البادية القريبة ، وصار كبارها يترددون على قصر الحاكم تلبية لدعوته الى مايقيمه لهم من الولائم ، ويقضون معه الاوقات فى الاسمار وانشاد الاشعار والعزف على الاوتار .

وذات ليلة بعد أن انصرف فرسان بنى هلال من مجلس حاكم الصعيد تقدم اليه أحد الاعوان وقال له :

ــ بلغنى ياملك الزمان من بعض النساء أن فى بنى هلال امراة بديعة الجمال عديمة المثال فى الحسن والكمال والقد والاعتدال وفصاحة المقال ، لايوجد مثلها بين الخلق ، لافى الغرب ولا فى الشرق ، اسمها « الجازية » كأنها الشمس الضاحية ، ان خطبتها منهم حصلت على السرور والانشراح ، لأن طلعتها تنعش النفوس والازواح .

وايد بعض الحاضرين كلام المتحدث ، وقالوا : ان الجازية هى أخت الأمير حسن .

قال الماضي بن مقرب :

ــ ياقوم ، ما لهذه المسألة من وجه ؟ فأنى أخشي أن يقولوا :

الماضي يطلب حق ضيافته لنا من بناتنا .. وقال احد الحاضرين :

ــ ياملك الزمان ، الزواج بين الناس مافيه شيء ولا هو عيب ، والذى يتقرب من الناس خير من الذى يبتعد عنهم .

وكان الوزير ساكتا يفكر ويتدبر ، فلما هم بالكلام التفتوا اليه باهتمام ، فقال :

ــ لقد سمعت انا ايضا بخبر هذه الصبية وما فيها من المحاسن البهية ، ولكنى أعلم انهم لايزوجونها أحدا ولو كان من الملوك واعاظم

العمد ، فاذا كان لابد أيها الملك من ذلك فأطلب أولا فرس دياب «الخضرا» التى لايوجد مثلها فى جميع الممالك وانا أعلم انه لايعطيها لأن نفسه معلقة بها . فاذا .. ماطلبت بعد ذلك يد الجازية خجلوا أن يردوا لك الأمنية الثانية .

وكتب ابن مقرب الى الأمير حسن يطلب منه « الخضرا » .. ولم يفته فى آخر الرسالة ان يبدى استحياءه من هذا الطلب ..

وقرأ الامير حسن خطاب ابن مقرب ثم ناوله أبا زيد ليطلع عليه وهو فى حيرة ، وقال له :

ــ ما الراى عندك ؟ أنا اعلم ان « دياب » لاينزل عن « الخضرا » ولو هلك بنو هلال ..

ــ الراى عندى أيها الملك المهيب أن اذهب انا وانت والقاضي بدير الى منزل دياب ونطلب منه أن ينعم « بالخضرا » وندفع له عوضها مايريد من خيول وأموال .. والا ساءت أحوالنا وشغل بالنا .. واستمع دياب الى كلامهم فى دهشة وغضب .. فانه يتوقع كل شيء ويتحمل مصائب الدنيا كلها الا أن تفارقه « الخضرا » ...

الخضرا التى رباها منذ الصغر وصارت جزءا من حياته لايشعر بسعادة ولا قوة كما يشعر وهو فوق ظهرها .. انها حصنه المنيع اذا اشتدت أهوال الحرب ، وانيسه الذى لا يمل اذا طال السفر ، وقد كانت رسوله الى قومه يوما عندما وقع فى خطر اذ احتال عليه الاعداء حتى انتزعوه من سرجها واسروه .. فعادت الى منزله تجرى وتطلق صهيلا كأنه البكاء .. فلما رأتها ابنته « وطفا » وسمعت صهيلها صاحت :

ــ ياويلاه .. ان ابى فى شدة .. هذه « الخضرا » تنبىء بذلك . واسرع ابوزيد وباقى الفرسان ، وخلصوا « دياب » ، ونكلوا بالاعداء .

ان « دياب » الفارس العنيد لم يشغل قلبه بحب امرأة وهو يشعر ان الخضرا هى حبيبته .. وهو يأبى أن تطلب منه .. أنهم يرون انها عنده مجرد فرس .. تغنى عنها فرس .. وكاد عقله يطير حين يسمع الامير « حسن » يعرض عليه أن يأخذ بدلها مايريد من الخيول والاموال .. وهل « الخضرا » شيء يباع ؟

ولكنه ملك نفسه وقال له :

— يا أمير حسن .. كل شيء عندى فى قبضة يدك الا الخضرا لايمكن التفريط فيها .. لان روحى وروحها سيان ..

ونظر اليه خاله القاضي بدير وقال له معاتبا :

— ماهذا الكلام يادياب ! كيف نقصدك فتردنا خائبين من اجل فرس ؟

— ياخالى .. ان الخضرا اعز على من البنين والبنات ، فخذوا غيرها ماتريدون من الخيول فأنا لاأعطيها احدا ولو اجتمعت على كل الخلائق .

وخرج الامير حسن وأبو زيد والقاضي بدير من عند دياب يائسين ، وبينما هم يهمون بالركوب عائدين الى مضاربهم رآهم غانم أبو دياب فعزم عليهم أن ينزلوا عنده ، وذبح لهم وأكرمهم ثم انفرد بابنه دياب وعاتبه عتابا شديدا وأمره أن يجيبهم الى طلبهم ويعطيهم الخضرا .. فلا يليق بالعربى أن يمنع ماله عن اهله وأصدقائه .

ولكن المشكلة كانت عند دياب أنه لايعتبر « الخضرا » مالا .. يهديه الصديق الى صديقه أو القريب الى قريبه .. انها كائن صديق حبيب .. وهو يحميها كما يحتمى بظهرها .. وقد تعود أن يحل المشاكل بالسيف ، وطالما صال وجال فى ميادين القتال وصرع الابطال ، والويل لمن يقف فى طريقه أو يتحداه ، ولكنه اليوم يجابه موقفا لا سبيل فيه الى الضرب والطعان ، فهؤلاء أهله وعشيرته ، وابن مقرب مضيفهم الذى أنزلهم فى ملكه ولم يدخر وسعا فى اكرامهم والانعام عليهم وتوفير أسباب الراحة لهم ، فاكتسب بذلك حق الصديق وحرمة الحليف المعاهد .

ولكن الخضرا .. هى الخضرا .. ويلك يادياب ، وطالما ناداه الفرسان قائلين مهددين : ويلك يادياب ! فكان يهجم ويرد لهم الويل .. اما الآن فان كلمة « ويلك ياديا ب » التى يقولها لنفسه ذات مذاق آخر .. مر !.

فاسرج دياب الفرس وقادها الى الامير حسن وهو يقول :

يقول الفتى الزغبى دياب بن غانم
أنا صاحب الهمات فى يوم الطراد
يابو على أنا مابخيل ولا ردى
ولا أنت للخضرا لديك مراد

لكن ستعطيها الى ابن مقرب
أنا بالفرس أولى من الأبعاد

وما طاق قلبى ياأمير فراقها
وقد ربيتها احسن من الاولاد

أنا تحت امرك ياأمير ابو على
فافعل بنا ماتفعل الاجواد

فشكره الامير حسن قائلا :

يقول الهلالى ابو على
اجاد الفتى الزغبى اجاد

اجاد ابو وطفا دياب الغانم
اميرها بين الاكابر سناد

وانت عمرك مابخلت بحاجة
وأنت دياب سيد الاسياد

واستدعى الامير حسن رسولا وامره أن يسير بالخضرا الى الماضي بن مقرب فتقدم اليها دياب وعانقها وهو يحس لأول مرة فى حياته بقلبه يكاد ينفطر من البكاء المكبوت .

دهش الماضي عندما وصلته الخضرا ، فلم يكن يتوقع ان يفرط فيها دياب وقد أحس بالندم لاحراج ضيوفه ، كما شعر بفشل الخطة التى رسمها وزيره للوصول الى الجارية .. وجعل القوم يهنئونه بهذه الفرس العربية التى لانظير لها بين الخيل ، وهو غارق فى افكاره ومشاعره ..

وبينما هو كذلك اذ وصله رسول من مكة يحمل خطابا من اميرها « شكر الشريف بن هاشم » وفيه يقول له : أن زوجته « الجازية » هجرته ورحلت مع اهلها بنى هلال الى المغرب وانه علم انهم نزلوا عنده ويرجوه أن يتوسط فى الصلح بينه وبين زوجته حتى ترجع اليه والى ابنهما « محمد » الذى يبكى لفراق أمه .

اذن فالجازية متزوجة وام .. ام محمد .. على خلاف مازعم له الوزير من ان اهلها لايزوجونها احدا ولو كان من الملوك .. ويل لهذا الوزير الغبى الذى أوقعه فى هذا الحرج وكاد يفسد بينه وبين اصدقائه بنى هلال .

واراد الماضي ان يقوم بالصلح بين امير مكة وزوجته الجازية ، وقبل

ان يذهب الى قومها جاءه سائس الخيل واخبره بأن الخضرا لاتأكل ولا تشرب وانها تصهل صهيلا حزينا كأنها فقدت ولدها .. فأمر باسراجها واعدادها مع هدايا كثيرة وأرسلها الى بنى هلال فى مضاربهم ، وكتب كتابا وأعطاه الرسول وفيه يقول :

يقول الفتى الماضي هـو ابن المقرب
بدمع جـرى فوق الخـدود مـداد
يابو على أرسلت خضرا اليكمـو
تحف بهـا الفرسـان والانجـاد
لنقفـل باب الشر والخلف بيننـا
ونطفىء نار الحـرب والاحقـاد
الخضرا فـرس أصيلة متأصـلة
وما لها الا دياب الخيل سـيد الاجواد
واطلب صـلح الجـازية ام محمد
وخـد ماتشـا ياسـيد الاجـواد

كان دياب فى مجلس الأمير حسن عند وصول الخضرا مع رجـال الماضي ، فقرأ حسن خطاب ابن مقرب على قومه ، ثم قال لدياب :

ـ هاهى ذى فرسك قد رجعت اليك فقم وخذها واشكر الاله الرحمن على هذا الجميل والاحسان .

فقال دياب وهو يشعر فى نفسه بالصراع بين حبه للفرس ، وبين طبع الفارس العربى :

ـ اننى ماوهبت شيئا قط ثم عدت استرجعه .. فأبقهـا لك واجعلها من جملة خيولك .

ـ هذا لا يكون ، اكثر الله خيرك ، فأنت صاحب المعروف وأحـق بها من غيرك وأنت لم تسترجعها ، وانما رجعت اليك حلالا عليك ..

وكان دياب فى أثناء هذا الحديث يتجنب النظـر الى الخضرا حتى لايغلبه الشوق اليها ، فلما سمع من الامير حسن ما سمع وطابت به نفسه قام اليها وامسك زمامها بيسراه وتحسس كتفها بيمينه ، فلمـا شعرت الفرس بكفه ارتعش بدنها ورنت اليه وهى تحمحم .. وعلم كأنها تقول له كلاما كثيرا فيه عتاب وشوق وحنين . فأسرع بها ليخفى عن القـوم دموعا تريد أن تنسكب من عينى الفارس العنيد .. دموعا كتمها فى قلبه يوم فارقته الخضرا ، ففاضت الآن دموع الفرح ..


مسألة
صعبة

دخل الأستاذ كمال الفصل فى المدرسة الثانوية التى يدرس بهـا اللغة العربية وأخذ يشرح درس « الاسلوب » وهو غير مقتنع بفائدة ما يلقيه على الطلبة مع يأسه من فهمهم له ، وكان يشعر كأنه يلقى عليهم « دبشا » جمعه من الكتاب المقرر .

كان يشرح لهم الفرق بين الجملة والفاظها وبين الحائط و « الآجر والملاط » ... يعنى الطوب الاحمر والمونة ... ويقول فى نفسه :

« والله يارب كلام فارغ »

وأحس احد الطلبة كأن المدرس يريد أن ينقض عليه فصاح فى صوت خفيض :

ــ ياساتر يارب !

وتحرك ضمير الاستاذ .. فأغضي على مافى كلمة الطـــالب من سخرية .. لانه يدرك أن الطالب ينفس بها عن نفسه ..

واستمر يبين لهم « التفاعل » على مافى كلمة « فصل » وجاراتها فى العبارات الآتية :

« الفصل الأول من السنة الثانية الثانوية »

« الفصل الثانى من كتاب النقد والبلاغة »

« فصل الخريف »

وانفجر طالب كأنه يكمل :

« فصل بارد ! »

وقال آخر :

ــ « دا فصل الشتا .. »

وضج الفصل بالضحك ، وشعر الطلبة بلذة الهرب ــ لحظة ــ من الدرس الغامض الثقيل ..

وكان الاستاذ كمال مدرسا شابا قد تخرج فى الجامعة منذ سنوات .

وهو يعيش فى الجو الأدبى الحاضر ويشارك فى الانتاج على قدر ماتسمع به ظروفه ، ولكنه يجد نفسه مضطرا الى أن يمارس الوانا أخرى من الدراسة العقيمة المحصورة بين جدران المدرسة ..

انه يقرأ للأدباء المعاصرين ويكتب هو أمثال ، التليفون ، والسينما ، والدش .

ولكنه فى المدرسة مكره على أن يعلم الاولاد أن هذه الاشياء اسمها :

المسرة — ودار الخيالة — والمشن ...

انه حائر يحدث نفسه :

« شيء عجيب ! الاولاد فى المدارس اذا كتبوا مثل كبار الادباء اعتبرهم المدرسون مخطئين واذا تساهل المدرسون اعتبرهم المفتشون مخطئين .. وستكبر الاولاد ويكون منهم ادباء وكتاب يتحررون مما يفرض عليهم الآن ، كما تحرر الذين من قبلهم .. فلم هذا العناء « ووجع الدماغ » .. ؟ اليست هذه سخرة ؟ »

ويذكر الاستاذ كمال اصطدامه بالمفتش فى العام الماضي عندما عثر المفتش فى كراسة تلميذ على كلمة عامية غير موضوعة بين قوسين .. المفتش يرى انه مادامت هذه كلمة لايوجد لها نظير فى اللغة العربية الفصحى فيجب التحفظ عليها واعتقالها بين قوسين حتى توجد كلمة فصيحة تحل محلها .. أما الاستاذ كمال فلا يرى داعيا لعزل مثل هذه الكلمة عن غيرها ، لانها لاتحمل ميكروبا ..

وتمسك كل منهما برأيه . والاسلحة غير متكافئة .. لهذا شعر المدرس بالظلم عندما رأى كلمة « متوسط » فى تقرير المفتش عنه ..

وهاهو ذا الاستاذ كمال يشعر بالمشكلة فى صورة أخرى .. هى هذه الدروس التى كانوا يسمونها « البلاغة » والتى يهتم بهـا من يدرسونها فيتجمدون عندها .. أما الأدباء فانهم لايعبأون بها ، بل يعيشون حياتهم الادبية ينطلقون فى الانتاج الادبى ، وقد صار اسمها الآن — بعد التطوير — « النقد والبلاغة » .

وتنحصر عملية التطوير فى استعراض عضلات الحذلقة ..

والاستاذ كمال ينظر فى نفسه .. لقد بذل جزءا من حياته فى هذه الدراسة ، فى المدرسة ، فى الكلية ، ثم قرأ وكتب فلم يجد لتلك الدراسة

اية فائدة وأخيرا يرى نفسه يشترك فى استمرار التجربة الفاشلة بشكل جديد فى الجيل الجديد ..

ودخل المفتش الفصل

قيام .

جلوس .

وأصغى المفتش الى الاستاذ ، ثم بدأ يناقش التلاميذ . فسألهم عن .. التفاعل بين الكلمات .. فرددوا نفس الجمل :

« الفصل الاول من السنة الثانية الثانوية »

« الفصل الثانى من كتاب النقد والبلاغة »

« فصل الخريف »

قال المفتش للتلاميذ وهو ينظـــر الى المدرس .. كأنه يقصــــــده بالسؤال :

ولكن ما التفاعل بين كلمة فصل وبين باقى الكلمات ؟

ثم اقترب من الاستاذ كمال يهمس له باللغة العامية :

ـــ أنت مش شرحت لهم المسألة دى ؟ !

ـــ أيوه .. بس مسألة التفاعل دى صعبة عليهم .

ـــ لا .. لا .. مفيش حاجة صعبة .

قال المفتش ذلك باستنكار وحزم .. واتجه الى التلاميذ فى هيئة المدرس النشيط ، وجعل يشرح لهم « التفاعل بين الكلام » متادا مؤلفى كتاب المقرر فى استعراض عضلات الحذلقة .

ولمعت فى فكر الاستاذ كمال ابتسامة ماكرة : وهو ينظـــر الى المفتش الذى انهمك فى الشرح حتى عرق ..

وانتهى المفتش ، فتقدم الاستاذ كمال الى التلاميذ والابتسامة تتسع فى نفسه .. وقال :

ـــ السيد المفتش شرح المسألة شرحا وافيا ، فمن منكم يستطيع أن يبين تفاعل كلمة « فصل » مع باقى الكلمات .. ؟

ـــ فلم يرفع أحد اصبعه ..

وعاد الاستاذ يقول :

ـــ هذا الشرح العظيم الذى شرحه السيد المفتش .. الم تفهموه.!.

وساد الصمت .. فقال الاستاذ :

ـــ ولا واحد ! ؟

واستمر الصمت ..

فاقترب الاستاذ كمال من المفتش وهمس فى اذنه باللغة العامية :

ـــ مش قلت لك انها مسألة صعبة !


بنت
عمى

حينما اقبلت على صديقى الاديب المعروف الاستاذ محمد مختار البرجى ، وهو جالس فى احدى امسيات الصيف الماضي على رصـــيف (بار اللواء (ــ الفيته متثاقلا يضع مرفقه على المنضـــدة ويسند راسه الى راحته . فأخذت مجلسي على الكرسي المقابل . مكتفيـــا بتحية خفيفة دون ان امد يدى لمصافحته . ورد هو التحية ردا خفيفا ايضا ، ثم اردف يقول وهو يميل براسه على يديه المشتبكتين فوق المنضدة :

ــ « سأنعس خمس دقائق »

ــ فلتكن عشرا .

وارسلت بصرى الى الشارع الى العابرين به ولكن فكرى كان مشغولا بأمر الصديق امتعب هو ام مهموم ؟ ولم يدع هو هذا التفكير يشغلنى طويلا ويقلق بالى فقد رفع رأسه واشعل لفافته وابتدأ الحديث بيننا تافها . وقد تجنبت ان اسأله عما يهمه ولكنه نظر الى وقال :

سأقص عليك قصة .. وسكت قليلا ثم قال : كنت اصطاف منذ سنين فى راس البر فقام بنفسي فى احدى الليالى ان اجول بمدينة دمياط وطاب لى الجلوس على قهوة بها « وبينما انا جالس اقترب منى شاب كان يتأملنى من بعد وانا اتغافل عنه وقال لى :

ــ حضرتك الاستاذ محمد مختار البرجى . ؟

ــ أتعرفنى ؟

ــ انت خالى ...

ــ خالك ؟ ومن انت ؟

ــ اتعرف ان لك عما اسمه على مختار ؟

ــ نعم اسمع عنه ، لقد توفى ابى وانا صغير ونشأت مع امى فى القاهرة وكانت تذكر لى عمى هذا وعما آخر وتقول : انهما فى دمياط ولكن من انت ؟ وما مكانك من عمى على مختار ؟ قل لى اولا كيف عرفتنى ؟

ــ كيف لا اعرفك وصورك تملأ بيتنا .. نفصلها من الصـــحف والمجلات ونزين بها الجدران . واسمك يملأ اسماعنا ويبعث النشـــوة

فى نفوسنا .. هلم ياخالى .. كم تسر امى برؤيتك . امى بنت عمك على مختار ...

طرق الشاب باب منزلهم وقد طلب الى ان اتأخر قليلا حتى اكون بحيث لا يرانى من يفتح الباب وفتحت له أمه ، فبادرها انه سيفاجئها الآن بهدية نفيسة هى اعز أمانيها ثم أردف : سترين الآن يا اماه ابن عمك الاستاذ « محمد مختار البرجى » !

وتقدمت وكان اللقاء حارا اترك وصفه لانك تدركه من طبيعة الموقف واستمر الصديق يقول : لا اطيل عليك الكلام . عرفت مما دار بيننا من حديث ان الشاب يحل محل أبيه المتوفى فى تجارته الموفقة وان عمى على البرجى توفى منذ زمن غير قليل وكذلك عمى الآخر وله اولاد يعيشون ايضا فى دمياط كما عرفت من بنت عمى هذه ان لها شقيقتين متزوجتين .

وتبادلنا الزيارات العائلية وتوطدت العلاقة وتم التعارف بين هؤلاء الاقارب الاعزاء وبين اسرتى واولادى فى القاهرة وساد هذه العلاقة مودة وسرور كان لهما اثر كبير فى تجديد نفوسنا جميعا . ثم مضت الايام وسرنا نشعر بالقرابة وغفرنا للظروف ما قضت به من التشتت فيما مضي .

واحتسي الاستاذ البرجى قهوته وجذب انفاسا من لفافة اشعلها واستأنف يقول : وجاء الى مرزوق افندى وهو ابن عمى الآخر وقد اعتاد زيارتى عندما يأتى الى القاهرة ولكنه فى هذه المرة جاء لأمر ... قال لى :

ــ اعد نفسك لما سألقى عليك من نبأ .

ــ قل .....

ــ انه نبأ مؤلم واحب ان تكون شجاعا فى تلقيه .

ــ هاته اسرع فقد يكون كلامك اشد منه .

ــ ما احسبك لقيت فى حياتك اشد مما سأفضي اليك به ولا مفر لى من ذلك لان هذا الامر يهمك كما يهمنا .

ــ لا تخش على شيئا فانا اليف شدائد .

ــ اتعلم ان لك ابنة عم اسمها سنية وانها ... راقصة ...

ــ ايه . . . . !

ــ الم تقل انكَ حليف شدائد ؟ لا تجزع يا اخى لأننى اريد ان تعاوننى فى ثبات على ماجد فى أمرها . واجمل لك قصتها فى أن امها كانت قد تزوجت بعد وفاة أبيها وكانت اخواتها الثلاث قد كبرن وتزوجن اما سنية فقد ضاق بها زوج امها ، وضاقت هى بما لاقت من قسوة وخشونة ، فتسللت الى القاهرة ، ثم احترفت الرقص ، وهى الآن تعمل فى احدى (الصالات) وكانت قد تزوجت شابا من أهل الفن توثقت بينها وبينه أسباب المودة فى اثناء عملهما معا فى الصالة بعد ان عاشرها سبع سنين ، ثم طلقها اخيرا .

ــ ايه !

ــ وقد ذهبت اليها اليوم واردت أن انقذها من هذه البيئة فعرضت عليها الزواج فأبت ، وسخرت منى ، وقد اعتزمت أمرا أريد أن تعاونني عليه ... نقتلها فنغسل عارنا بدمها .

ــ هون عليك ياأخى ، فالذى بنفسك سيذهب بعد حين ، ولم نقتلها ؟ أما أنا فلا استطيع قتل دجاجة . اذهب الى حالك ودع الأمور تجرى فى مجاريها .

ولم أرد أن أخاشن ابن عمى وهو فى زيارتى ، فتلطفت معه حتى ودعته وانصرف بعد الغذاء ، وقد سكن غضبه ، وعاد أدراجه الى بلده كأن لم يكن شيء . وكنت حريا أن أسأله عما جد فى شأن ابنة عمنا وهى كما يعلم منذ أمد بعيد ، وجعلت افكر فى الأمر وانا لا استطيع ان اتصور كيف نقتل فتاة دفعها التيار الى هذه الناحية من الحياة ؟ وهل تقتل الفتاة لأنها راقصة ؟ وكلما تذكرت ماكان يريد مني عمله من المعاونة على قتلها عرتنى رعدة اشمئزاز واستنكار لفكرة القتل البشعة ويختلط هذا كله بألم يحز فيهِ حينما أتصور حياة الراقصات التى أعرفها ، وأن بنت عمى واحدة منهن ... ودار راسي من التفكير والألم .

واخذت طريقى الى نادى الصحفيين . وما أخذت مجلسي هناك حتى جاء الخادم يدعونى الى التليفون ، فأمسكت السماعة واصغيت ، فسمعت صوتا ناعما يقول :

ــ انا قريبة لكَ .

ــ اعرفك .. سنية بنت عمى .

ـــ اذن فقد حضر اليك اليوم مرزوق افندى . ولكن كيف تقول انى بنت عمك ؟ الا تنكرنى ؟

ـــ انك بنت عمى من غير شك . اريد أن أراك .

ـــ وتريد أيضا أن ترانى ؟ أجاد انت فى كلامك . ؟

ـــ دعى هذا ، ولنتم الحديث حين تحضرين .

ـــ واقبلت سنية بعد قليل ومن المتبع فى النادى أن يكتب الزائر اسمه فى دفتر الزائرين فأمسكت انا القلم وكتبت اسمها هكذا : سنية على البرجى .

وانتحينا ركنا قصيا بالنادى وهى تقول لى :

ـــ ان اسمى سنية على فقط . فلم ارد ان الوث اسم « البرجى » الذى عرفت انت به .

ـــ ليكن اسمك من الآن سنية على البرجى .

ـــ لا اكاد اصدق ماارى ، فما كنت اطمع ان انال اعترافك بى فيما بيننا فضلا عن مجاهرتك بقرابتى !

قالت ذلك وطأطأت تفتح حقيبة يدها وتخرج منديلا تمسح به دموعها ، ثم تابعت :

أما مرزوق افندى فسامحه الله ، لقد كان منزلى مثواه كلما جاء القاهرة ، ولم أكن اضن عليه بما يطلب حين تقصر يده ... فما باله اليوم يستشعر العار فى مسلكى ؟

ـــ قال لى : انه عرض عليك الزواج .

ـــ نعم ورفضت . ومن اجل هذا تعرضت لعاصفته ... وانا مازلت ـــ ولا اخفى عنك ـــ احب زوجى السابق ، وقد تعودت لونا من الحياة معه ، ولم يذهب من نفسي الامل فى أن يعود الينا حسن التفاهم ثم انا ان تزوجت « مرزوق افندى » فسيكون خيال ماضي منغصا لحياتنا، وهناك الاهل الذين لفظونى ثم انكرونى ... كيف يطيب لى العيش فى وسطهم ؟

ثم نظرت الى نظرة فيها مزيد من الحنان والشكر ، وقالت :

ـــ وانت يابن عمى ... كم انا سعيدة بهذه الكلمة . ابن عمى

كلمة بحثت عنها كثيرا فلم اجدها الا حينما رايتك تكتب اسمى فى الدفتر سنية على البرجى . !

واجهشت ، فانخرطت فى بكاء .. ثم قالت :

— وانت يابن عمى جبرت نفسي — جبر الله نفسك !

وانصرفت سنية ، وقد وعدتها بالزيارة فى منزلها . وارتاحت نفسي لحسن استقبالى لها واغتباطها بذلك . ولكن كان فى نفسي شيء يدفعنى الى بحث مايحيط بها .. نعم لقد مكثت سبع سنين متزوجة ، وقد عرضت عليها فى النادى ان تكون على حريتها فتطاب ماتشاء ففى المقصف كل شيء .. ولكنها أبت واكدت انها لاتشرب الخمر وانها ليست كما قد اظن .. الخ

ولكنى فى الوقت نفسه أعرف (الصالات) وما فيها من « فتح » وغيره .. لذلك جعلت ارقب احوالها فى زياراتى لها ، فلم أجد مايريب .

وكنت مرة فى نادى نقابة الممثلين مع صديقى الاستاذ أحمد كامل احد نجوم المسرح والسينما وعضو مجلس ادارة النقابة ، وقصصت عليه قصة بنت عمى ، وتعمدت أن اذكر اسمها — فى عرض كلام — قبل ان افضي اليه بقرابتها وقصتها ، وهو صاحب مغامرات مع كثيرات من هؤلاء الراقصات ومثيلاتهن فلما وصلت فى القصة الى التلويح بشيء من التشكك قال لى حسبك لان تطمئن بأن تعلم انى لاعرفها .

وصحبت سنية بعد ذلك الى نادى نقابة الممثلين وعرفت أعضاء النادى بها . ثم طلبت أن تشترك فى النقابة ، وقال لى الاستاذ احمد كامل : اننا لانقبل فى النقابة راقصات (الصالات) ولكن من اجلك سأعمل على قبولها .

وقيد اسم سنية فى نقابة الممثلين . واقترن ذلك بالاتصال بأحد منتجى الافلام ، وتم الاتفاق على أن تظهر سنية فى فيلم جديد ، وهى الآن تعمل به وقد تركت العمل فى (الصالة) .

واغتبطت اغتباطا كبيرا بهذا التوفيق فى نقل ابنة عمى من بيئة (الصالات) الى مستوى الممثلين والممثلات ، وانت تعلم ان هذه الطائفة من أهل الفن قد اصبحت لها اعتبارها ومكانتها فى مجتمعنا الحديث . وقد صرت أنظر الى سنية نظرة المطمئن الذى لايجد غضاضة فى الظهور

معها في المجتمعات ، ولا اخفى اننى كنت قبل ذلك أواجه الأمر الواقع ، وكنت أحدث نفسي بأنه يجب على أن اقول للناس : هذه ابنة عمى ! فلا ادعهم يتساورن بذلك ..

وسكت الاستاذ البرجي ، وهو ينزع الغلاف الشفاف عن علبة اللفائف الجديدة ويطويه بيده ويرمى به ، ثم يشعل لفافة ويأخذ منها نفسا ، ويسند راسه المثقل الى راحته وسحابة الدخان تتراقص أمام سحابة الهم على وجهه .

قلت له : ان مافعلت شيء عظيم ، وهو يدعو الى الارتياح ، فلماذا انت مهموم ؟ نظر الى كمن يطلب الصبر حتى آخر القصة ، وقال :

كنا امس في النادى ، انا وسنية وأحد الوزراء السابقين ، وهو صديق قديم معروف بميله الى الادباء والفنانين . جلسنا نحن الثلاثة معا فطاب مجلسنا ، وتبسط معنا صديقنا الوزير السابق فأكثرنا من الطرف والدعابات واشرقت البسمات على وجوهنا ، حتى جذب ذلك الينا الانظار . ثم انفض المجلس ، وتفرقنا في ارجاء النادى ، واذا أحدهم يدنو منى قائلا في شبه همس :

— لاتسرف في الظهور مع بنت عمك فنحن في مصر ..

ولست ادرى احاسد هو ام ناصح ، وعلى اية حال قد قال ماقال ..



کلب

ـ هو ... هو ... هو

ـ ماهذا ؟

ـ انا كلب ...

وبرغم مرح صديقى فتحى الممثل الكوميدى احسست انه يريد ان ينتصر على ازمة فى نفسه بتلك الدعابة التى مثل فيها الكلب واندمج فى تمثيله الى حد النباح ...

وصديقى فتحى ممثل شاب لمع ـ على حداثته ـ فى عدة ادوار على المسرح والشاشة وتكونت شخصيته كممثل للاشخاص الشواذ ، وصارت له قدرة فائقة على ابراز شذوذهم بطريقة تستدر الدموع من كثرة الضحك .

وعدت أسأله : كيف أصبحت كلبا ؟

ورأيت ان اشاركه فى محاولة الانتصار على أزمته النفسية بمسايرته فى الدعابة ... فحورت السؤال هكذا .

ـ أو بعبارة أدق : كيف عرفت حقيقة انتمائك الى الفصيلة الكلبية ؟

ـ هى .. التى قالت لى ...

ـ من هى ؟

ـ الفتاة التى احببتها .. واحبتنى .

ـ وكيف كان ذلك ؟ انك لم تحاول بعد ان تقنع (المخرج) بان تقوم بدور (روميو) ولو مرة واحدة يستطيع فيها (المكياج) ان يصنع منك شيئا مقبولا عند (جوليت)

ـ ستدهش اكثر اذا علمت ان سميرة ـ حبيبتى ـ فتاة جميلة رشيقة وابوها مع هذا (باشا) سابقا .

واستمر صديقى يقول :

التقينا اول مرة فى (كازينو) على شاطىء البحر — اذ كانت فرقتنا تقدم موسمها بالاسكندرية وقد قدمت زميلة بالفرقة كلا منا الى الآخر .

نظرت سميرة الى عند تقديمى اليها وأومأت براسها تقــول وهى تبتسم : اهلا وسهلا وتكررت النظرة الباسمة وتحولت الابتسامة فى اثناء الحديث الى ضحك رقيق عميق . وقد فكرت طويلا بعد ذلك — هل كانت تبتسم وتضحك لان فى شكلى وحركاتى ما يضحك او لأن كلامى ظريف .. او لانها تتودد وتتلطف الى . وكنت اخلص من ذلك التفكير بأن أقــول فى نفسي : ليكن أى شيء من ذلك او ليكن كله مجتمعا ، فالمهم هى ... ما اجملها وهى تبتسم .. بل ما اجملها ولو لم تبتسم !

وتكررت جلساتنا على الشاطىء .. وصرنا نلتقى وحدنا اذ أدركت الزميلة ان عليها ان تقوم بدورها فى حسن الذوق .. فتخلى لنا«المسرح» نؤدى دورنا وحدنا كما تقضى تعليمات المخرج الذى هو الحب .

وقد كان المخرج بارعا فقد أعد المنظر (على الطبيعة) .. بحيث ينعكس شعورى نحو فتاتى على صفحة البحر اذ كنت انقل بصــرى بين وجهها المبتسم المشرق وبين صفحة الماء الصافية من بعيد . فاذا ضحكت سمعت رنة كالموجة المتكسرة على الرمل فى رفق ودلال .

وانتبه فتحى ، اذ قلت له :

— الم تفكر لماذا تحبك الفتاة ؟ وعلى فكرة .. هل كاشــــفتك بحبها .. وانت ايضا هل اعربت لها عن حبك ؟

انتبه ، اذ نقله هذا السؤال من العالم الشعرى الذى استغرق فيه وهو يحدثنى كما يتحدث الشعراء — عن الابتســـامة والاشراق والبحر والصفاء ... الخ

نقله هذا السؤال من النشوة الممتعة الى المنطق الواقعى فقال : الواقع اننا لم نستعمل الكلمات المألوفة مثل : احبك .. وما الى ذلك ، ولكن كان الواضح ان كلامنا يستلطف الآخر ويستريح اليه ويشتاق الى لقائه وكنت اشعر فى نفسي انى احبها واقدر انها لابد ان تكون كذلك فكل شيء كان يدل على اننا نتبادل الحب ولو لم نعبر عنه بالالفاظ ...

وأحس فتحى اننى انتظر منه جواب شيء فى السؤال . فاستأنف يقول :

— نعم سالتنى لماذا تحبنى ؟ اعتقد انها فتاة مثقفة تدرك المعانى

الانسانية فى شخص « فنان » مثلى حقا لست وسيم الطلعة ولا فاره الجسم ولكن ...

ـ هل ادركت فيك المعانى الانسانية ... ؟

ـ ستعرف ذلك من بقية الحديث ...

ثم قال :

ـ انتهى موسم الاصطياف وعدنا الى القاهرة وعادت هى أيضا مع اسرتها التى كانت تصطاف . والتقينا بالقاهرة مرات قليلة فى مدى شهور .. حتى كان أمس وكنت قد جمعت عزيمتى من أطرافها ، ونويت أن ادخل مع حبيبتى فى دور جديد يشتمل على مفاجأة تجدد (شوق الجمهور) الذى يتكون من مشاعرى ومشاعرها .

قلت لها من غير مقدمات :

ـ هل عندك مانع من الزواج ؟

فقالت بكل بساطة : لا ...

وقلت فى نفسي : عال .. ولكنى ادركت أن السؤال غير محدود وماذا عسي أن يمنعها من الزواج ؟ فعدت اقول لها : أقصد (مانع من ان تتزوجينى ..)

فقالت بكل بساطة ايضا : لم يخطر لى هذا على بال ..

فقلت فى مزيج من الاعتراض والانكسار :

ـ الست تحبيننى ؟؟

ـ اننى احب « سابو » ولكنى لا اتزوجه ..

ـ من سابو ؟ ....

ـ كلبى ... الا تعرفه ؟

الشغل



كانت « سيدة » فى جولتها اليومية وبيدها اوراق اليانصيب حينما لمحت « المعلم حسن » يجلس فى دكانه الى منضدة صغيرة تشبه المكتب قد شرب خشبها مما يجيء عليه من السمن والزيت وما يقع عليه من الشاى والقهوة وغير ذلك حتى شبع .. ووضع عليه جهاز تليفون قد اخذ حظه هو ايضا من هذه الأشياء وان كان لونه الاسود يبتلعها فلا تظهر عليه الا عندما تلمسه اليد وتحس لزوجته .

والمعلم حسن نفسه بجلبابه الصوفى المبقع وكرشه البارز وجسمه المترهل يبدو انه هو كذلك لا يقل تشبعا بالسمن والزيوت عن تلك الاشياء وعن سائر مافى دكانه من صفائح وجوالات مملوءة بالجبن والزبد وانواع المسلى والزيوت والعلب التى كتب عليها « مش قديم فاخر » .

والمحفظة الكبيرة المملوءة بالنقود الورقية والفضية التى لمحتها « سيدة » بين يديه وهو يطويها بحنان .. كأنها يد حبيبة سمينة سمراء اسلمتها اليه ليداعبها ثم يضغط على كبسولاتها الثلاث الصدئة فتطقطق الاصابع ... ويرفعها بيده اليمنى ويدسها من فتحة الجلباب فى جيب الصديرى ، هذه المحفظة هى كذلك قد تشبع جلدها العتيق بالشحوم حتى صارت طرية لزجة .. وشاق سيدة منظر المحفظة ... واكلتها يدها .. وتلمظت لها كما يتلمظ المعلم حسن لمنظر الشواء ورائحته عند « الحاتى » المجاور له .

وتلكأت « سيدة » امام الدكان وهى تضع الخطة للانقضاض على المحفظة وخطتها تعتمد على اغراء الرجل واحتكاكه بها ويكون فى الغالب من المتقدمين فى السن الذين يميلون الى مثلها وقد امتلأت جيوبهم .

ورآها المعلم حسن ولم يشك فى وقفتها فهى تعرض اوراق اليانصيب للبيع ...

« عشرة آلاف جنيه ياصاحب النصيب » .

قالتها بصوت وصل الى اذن المعلم لطيفا رقيقا فأشار لها أن تقترب منه .

جمال طبيعى ... « وراور » ...

قال ذلك فى نفسه وهو يبدو فى منظره العادى الجاد ولم تتغير سحنته التى تجمدت على الكآبة برغم ما احرزه من مكاسب ونجاح فى التجارة وذكرته كلمة « وراور » ببائعة الفجل التى تنادى على بضاعتها فى حارتهم ويشترى منها فجلا صغيرا مثلها .. لانه يحب الوراور .. !

ودخلت « سيدة » الدكان قمحية ناضجة كالسنابل تلبس جلبابا اسود ويتدلى من فوق راسها على عنقها خمار اسود شفاف يبدو تحته وامامه على الراس المنديل الكحلى الفاتح الذى تعصبت به وظهر الترتر فى ربطته .. وأشار لها المعلم الى دكة خشبية لتجلس عليها واخذ منها ورقة اليانصيب وجعل يسألها عن موعد سحبها وقيمة ربحها « ويمطط فى الكلام » ..

واتجهت « سيدة » الى قلة مملوءة بالماء وشربت ثم جلست على الدكة فشعرت بشىء من الراحة بعد التعب من الطواف الطويل وكان المعلم قد تشاغل عنها قليلا فى ناحية من الدكان ثم جاء اليها وفى يده « سندوتش » قدمه لها وهو يقول :

« انت لازم جعانه .. كلى ده ...

فتمنعت قليلا ثم تناولت السندوتش وجعلت تأكله وقد زايلتها اللهفة الى المحفظة وذهب من نفسها اغراء منظرها .. وحل محله شعور بالامن والسلام فلن تضطر الى مشاغلة الرجل و « لطش » المحفظة منه وما يتبع ذلك من الهرب والاختفاء والخوف .

ان المعلم « حسن » — كما بدا لها — رجل طيب وان كانت قد تدربت وتعودت أن تبعد عن نفسها — عندما تهم بالنشل — أى شعور بالاشفاق على الفريسة وأن تفكر أنها هى فى حاجة الى هذه النقود لكى تعيش منها ولهذا لايهمها تودد الرجل اليها الذى يكون عادة مصحوبا بالرغبة فيها ، بل هى تقول لنفسها « تيجى تصيده يصيدك » وتصيد المحفظة من الذى يريد أن يصيدها .

ولكن المعلم « حسن » لا يزال فى منظره العادى الجاد وفى سحنته المتجمدة على الكآبة — فلم يبتسم لسيدة ولم يقل لها أية كلمة تدل أو تشتم منها رائحة الغزل .

أيكون عطف الرجل من نوع آخر ... برىء ؟ .

شعرت بالطمأنينة وهى تقضم السندويتش .

ما احلى الطمأنينة .. والامن من المطاردة وشبح الشرطة وما وراء القضبان من حلق الشعر وغيره .. !

أليس من الممكن ان تعمل فى هذا الدكان مع هذا الرجل تنظفه وترتب بضائعه وتساعد صاحبه فى البيع .. هل آن لها أن تستريح .. أن تعمل .. وتقنع بالحلال الذى تحصل عليه من العمل ولو كان قليلا؟ انها عندئذ ستأخذ هذا الأجر القليل وتحبه .. لأنه ثمرة عرقها المطمئن.. تضمه وتقبله ... وتنفقه على مهل فيما تحتاج اليه ، لن يكون كذلك المال الوافر الذى تسرقه وتسرف فى انفاق نصيبها منه بعد أن تأخذ المعلمة اكثره .. انها تشعر كأنه عقارب تريد أن تتلخص منها بأية وسيلة فتشترى ما تشاء وما لاتشاء وما فيه فائدة وما ليس فيه فائدة ..

لقد ظنت حينما وقعت فى يد « أم بلبل » التى « تسرح » الاولاد بأوراق اليانصيب انها وجدت عملا ولكن ام بلبل كانت تقول لها : ان مايأتى من بيع هذه الاوراق لايسقيها ماء وان عليها أن تعمل شيئا آخر ... وشيئا فشيئا دربتها على النشل ووجدت نفسها منساقة فى هذا السبيل بدافع الحاجة الى اللقمة والمأوى ...

وجفلت « سيدة » تفكر ... هل تطلب من الرجل ان تعمل عنده أو تنتظر فقد يعرض هو عليها ذلك ... ؟

ثم خطر لها خاطر .. ترى هل يحبها ويتزوجها ؟ الا انها طردت هذا الخاطر من نفسها بسرعة لانها انما تريد العمل الشريف ولا تريد أن تدفع ثمنا له حرية عواطفها ..

كانت كل تلك الخواطر تجرى فى راس « سيدة » وهى تأكل السندويتش والمعلم حسن مشغول عنها بتصريف شئون البيع مع بعض الزبائن وان كان فى الحقيقة مشغولا بها .

وكان المعلم قد طلب كوب شاى من القهوة المجاورة وحضر صبى القهوة يحمل صينية صغيرة صفراء مستديرة وعليها كوب الشاى ، فتناول المعلم الكوب وهو يأمر الصبى أن يأتى بكوب آخر وقصد نحو « سيدة » وقد انصرف صبى القهوة وقدم لها كوب الشاى قائلا :

— اشربى الشاى دا قبل ما يبرد . بلعى به اللقمة .

— اتفضل انت يامعلم كتر خيرك ..

ـــ لا لا خدى اشربى جاى غيره .

ومدت « سيدة » يدها اليمنى لتأخذ الشاى بعد أن وضعت بقية السندوتش فى يسراها وكان الشاى لايزال ساخنا يتصاعد منه البخار واخذ الجليد المنعقد على سحنة المعلم يزول وهو يجلس الى جانبها على الدكة ويلتصق بها .. وشعرت « سيدة » بالأسف والأسي لان مشاعرها واحانيها تبخر بسرعة ويحل محلها الاستعداد للشغل .. والاهتمام بالمحفظة ..

كان جمود سحنته اجمل فى نظرها من هذه البشاشة الكريهة .. واهتز الكوب فى يدها ولسعها منه رشاش حار فوضعته امامها وهى تبدى بعض التألم وامسك المعلم بيدها وهو يبدى عطفه المزوج بالغزل ...

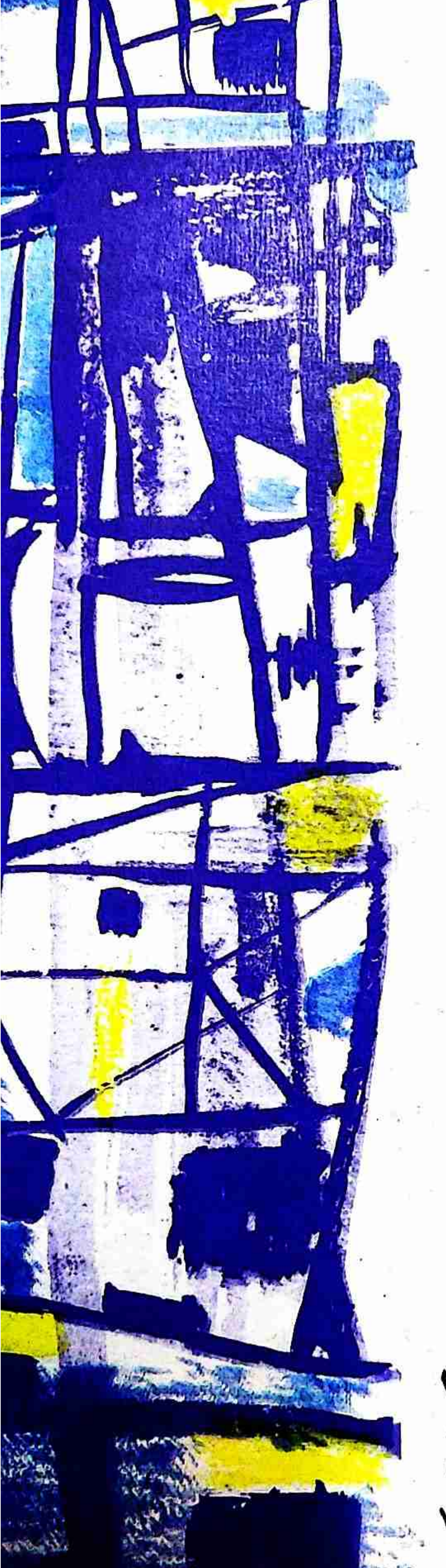
وحينما دخل صبى القهوة وهو يقول من بعيد « الشاى يامعلم » كأنه ينبهه ويستأذنه فى الدخول ، غادر المعلم حسن مكانه بجانب « سيدة » وجيبه خال من المحفظة . !

تم الكتاب

تصويب

رقم الصفحة	السطر	الخطـــأ	الصـــواب
٤	١٣	لاتميل	لا نميل
٤	٢١	الكتاب	الكاتب
٨	٦	الست عالية	الست عليه
٨	٨	قارئها	لقارئها
١١	٣	وحملته كلها	وحملته الى فمها وقبلته وهى تكاد تذوب من فرط الحنان · لقد مسح آلامها كلها ·
١٢	٦	الجبوب	الحبوب
١٥	٢٧ ، ٢٨	الحاضرات والحاضرات والحاضرين	الحاضرات والحاضرين
٢١	١٥	حاجة تتعلق	صاحب حاجة تتعلق
٢٣	١	ولقى بجزعه	وألقى بجزعه
٢٤	٢	أيوب كان	أيوب لو كان
٢٧	٥	جزعه	جذعه
٢٧	١٢	وهأناذا	وهأنذا
٢٧	١٦	سبب	سببا
٣١	١٩	ولا تمشى	ولا تمس
٤٥	١	أمينه	أمسكت أمينة
٥٣	١	أحيانا	يحدث أحيانا
٥٦	١٠	والذ	والذى
٦١	٨	تظله	يظله
٧٦	٢	أقوال الاثمة	أقوال الأئمة
٧٦	١٩	قوله	قولة
٨٢	٣	فاتله	قاتلة
٨٢	٣٠	سرحا	سارحا
١٤٠	٦	تبخر	تتبخر

فهرس



الدار القومية للطباعة والنشر

العدد ١٣١

الثمن ٣٠ ص

١٩٦٥/٦/٣